حكايات قضائية

المستشار بهاء المري

الناشر : مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر.
الإسكندرية .. مصر
أودونيس للثقافة والنشر .. ريف دمشق .. سوريا.
Levant.egsy@gmail.com
الإسكندرية ٤٤ شارع سوتر .. أمام كلية الحقوق
هاتف / ٤٨٣٠٩٠٣ / ٠١١١٤٣٩١٦٠٠

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف .. غير مسموح بطبع أي جزء من أجزاء الكتاب أو خَزْنه فى أي نظام لخزْن المعلومات واسترجاعها أو نقله على أية وسيلة سواء أكانت الكترونية أم شرائط ممغنطة أو ميكانيكية أو استنساخًا أو تسجيلاً أو غيرها إلا بإذن كتابي من المؤلف.

اسم الكتاب : حكايات قضائية "صوَر من حياة الأرياف".
المؤلف : المستشار بهاء المري
رقم الإيداع : ٢١٩١٩
الترقيم الدولى: ١ – ٢٤ – ٦٦٥١ – ٩٧٧ – ٩٧٨
كتابة كمبيوتر وتنسيق: المؤلف
الطباعة: مطبعة سامي بالأزاريطة .. الإسكندرية.
تليفون / ٤٨٧٠٧٩٩ / ٠١٢٢٣٧٤٣٢٨١

حكايات قضائية

المستشار بهاء المري

المستشار
بهاء المري

حكايات قضائية

صُوَر من حياة الأرياف والأقاليم

٢٠١٩

هذه الحكايات

قِصصٌ ومَواقفُ لأُناسٍ طيبين بُسطاء، وغيرهم شِرِّيرُون ذوو دَهاء، عِشتُ بعضها خلال فترةٍ من فترات عمَلي كوكيل للنائب العام في عددٍ من بِقاع الرِّيف في مِصرنا الحبيبة، وعايَشْتُ أُخرى خِلال ما نظرْتُه من قضايا أثناء عمَلي كقاضٍ، وغيرها مما قرأتُ في تراثنا القَضائي الغَنيّ بالأحداث والمواقف ذواتِ المعَاني والمَغازي.

حدثَتْ في زمان وَلَّى؛ ولم تَزَل تَحدُثُ وتتكرَّر؛ وإنْ اخْتلفَتْ مَسارح الأحداث والشُّخوص.

لم أبْتغِ من حكايتها إبرازُ جُرْم، ولا تَرْويعُ قارئ، وإنما كانت بُغْيَتي كشْفُ بعضٍ من مَستور النفْس البشرية؛ وشيء من غَرابَتها ودِقَّة أسرارها، ذلك الإناءُ العَجيب، الذى إنْ نضَحَ بالخير مرَّة؛ نضحَ بالشرِّ ألف مرَّة، ولكي نَعِي ونتدبَّر ونتأمل ونَتبصَّر، وفي النهاية لندُقَّ من خلالها ناقوس خطر.

المؤلف

إهداء

إلى حفيدي

بهاء

وما زال الجرجاوي حيًّا

الغُرفةُ مُغلقة بمفتاح؛ ويقفُ على بابها أحد الرجال ليَمنعَ الناسَ من الدُّخول حتى تأتي الشرطة.

الأمُّ تقف أمام الغرفة تلطُم خُدودها، وتشُقُّ جُيوبها، النِّسوة يتَجمَّعْنَ من حولها يُواسينها فى مَصابها، وولداها البالغان يحاولان تهدئتها؛ ودموعهما تسيل على خدودهما حُزنًا على أختهما الشابة التي اختطفها الموت.

لم تَهنأ بزواجها الحديث الذى لم يَدُم سوَى عدة شهور؛ وطُلِّقَتْ بعدها لتعودَ إلى بَيْت أبيها.

الأبُ ينكفئ على نفسه باكيًا أمام الدَّار، يَلْتفُّ من حوله جَمْعٌ من رجال القرية؛ وغيرُهم يتوافَدون فى صَمتْ.

سيارة الشرطة تُطلِق صافرتها من بعيد؛ ثم تقترب لتقف على مَقرُبةٍ من الدار، يهُبُّ الرجال بالوقوف، ينخرط الأبُ فى البكاء، يشتعل صُراخ النسوة.

يدخل ضابط المباحث الغرفة، الفتاة العشرينية مُسَجَّاة على سريرها، بدينة الجسم، زُرقة فى وجهها، وأثر كدمات فى

خدَّيها، حبْلٌ غليظ مما يُستَعمل فى أغراض الحقل يَتدلَّى من السَّقف ومعقودٌ طرفه على هيئة حلَقة، ويتوسط الغرفة من أسفله كرسي مقلوب.

لم تغِب عن فطنة الضابط أنَّ رقبة الفتاة ليس بها آثار للحَبْل؛ لا سيما وأنها على درجة من البَدانة مما كان سيترك أثرا لا محالة، كما أنَّ طول الحبْل الذى يقترب من الأرض؛ لا يمكن استخدامه وهو على هذه الهيئة فى حادث انتحار.

أسرَّها الضابط فى نفسه واستكمل إجراءاته؛ مُنتظرًا تقرير مفتش الصحة، تَسلَّم التقرير: الوفاة جنائية وليست نتيجة انتحار.

اصطحبَ الأب والأمُّ والشقيقين إلى ديوان المركز، أجمعوا كلهم على رواية واحدة، تأَخَّرَت فى نومها عن المعتاد، دخلوا عليها غرفتها، فإذا بها قد شنَقَتْ نفسها، أنزلوها من الحبل وسجَّوا جُثَّتها على السرير.

لم تُثنِهم مواجهتهم عقلاً ولا منطقًا بعدم إمكانية حدوث ذلك؛ ولكنَّ عويلهم وبكاءهم كان حائلا فى تلك اللحظات

عن الاسترسال فى المناقشة، صرفَهُم الضابط مؤقتًا لحين انتهاء الدَّفن؛ واسْتكملَ جمع معلوماته من مصادر أخرى.

تأمر النيابة بتشريح الجثة، الوفاة تُعزَى إلى الخَنق بالضغط على الرقبة بجسم لين لا يترك أثرًا؛ ولا تُعزَى إلى انتحار.

وسَّعَ الضابط من دائرة جمع المعلومات، أفرغ تلك المعلومات فى محضر وعرضَهُ على النيابة التي أمرَت بضبطهم وإحضارهم، فى النيابة يعترفون.

لم تنسجِم علاقتها مع زوجها وسُرعان ما دبَّ بينهما الشِّقاق الذى أدَّى إلى انفصام عُرَى الزوجية بعد شهور قلائل، بعد عودتها لبيت أبيها نشأتْ بينها وبين آخر كانت تُحبُّه قبل زواجها علاقة آثمة فى غفلةٍ منهم، تطوَّرت تلك العلاقة إلى حملها سِفاحًا منه.

بدَت عليها علامات الحمل، أنْهت أمُّها النَّبأ إلى الأب، أقرَّت لهم المجني عليها بفِعلتها، وبأن ذلك المُخطئ مُستعدٌ للزواج منها، رفض الأبُ الزِّيجة لأنه فقير.

دَعَا الأب ولديه من منزليهما إلى اجتماع عاجل، تشاوروا، ركنوا إلى أمر ما، ثم كان القرار، اجتمعوا عليها جميعًا، الأبُّ والأمُّ والشقيقان، انهالوا عليها ضربًا ورَكْلاً، ثم جاءوا "بكُوفيَّة" لفُّوها حول رقبتها وجذبوا طرفيها عكس اتجاه بعضهما، فاضت الروح إلى بارئها فى السماء.

ينتشون بعد غَسْل عارهم – كما قالوا – كان هذا بعد مُنتصف الليل فى هدأة الكَوْن.

يُفكِّرون، يتداوَلون، كيف يكون الاحتيال على القانون، تتفتَّق أذهانهم عن فكرة الانتحار، جاءوا بالحبل وعلَّقوه فى السَّقف، أتوا بالكرسى ليكون من أسفله، أرادوا تعليقها فى الحلبل بعد موتها، قال أحدهم إنها بدينة؛ وربما انفصَلْت رأسها عن جسمها، عَقَلوا وجهة نظره، سُجَّ الجثمان على السرير وأخرجوا الواقعة على ذلك النحو.

يذهبُ الجميع إلى غياهب السجن، ويَبقى تُراث "متولى الجرجاوي" مع شفيقة مُمتدًّا حتى القرن الواحد والعشرين.

ضِحكةٌ مُدمِّرة

أحسَسْتُ أنَّ عقلى توقَّفَ عن الاستيعاب، أنَّ ذِهنى لم يَعُد قادرًا على فصْل الخُيوط عن بعضها، أنَّ عَيْنىَّ ترى السَّطر الواحد من أوراق تلك القضية سطرين أو ثلاثة على هيئة تموُّجاتٍ ترُوحُ وتجيء.

توقَّفتُ فورًا عن القراءة، فما جدواها إنْ كان من يَقرأ لم يَعُد يفْهَم ما يقرأ، رحِم الله عُمرَ بن الخطاب؛ عندما أوصَى من بين ما أوَصى فى رسالته لأبى موسى الأشعرىّ؛ بمناسبة تولِّيه قَضاءَ البصرة (الفَهْمَ .. الفهْم) نعم؛ لابد من الفَهم، وإلاَّ فلْندَع القراءة جانبًا حتى يصفُوَ الذِّهن لنفهم.

كم صعبةٌ هى تلك المِهَن التى لا حُدود فيها لتَبعات تَلازُم الصَّحْو والنَّوْم لذويها، حتى فى ساعات فراغِهم لا ينعمُون بالراحة من عَناء التفكير، وعلى رأس هذه المِهن مِهنة القضاء، حتى فى المناسبات الاجتماعية سُرعان ما تجد القضاة يميل بعضهم إلى بعض يتهامسُون؛ ليتداولوا فيما ينظرُون من أقضيةٍ؛ وُصولاً لوجه الحق فيها.

أكداسٌ من الملفات؛ ما أن نُنْجزَ شيئًا منها أو كلها؛ إلا ويأتينا سَيْلٌ آخرَ من مثلها، حتى إذا ما فرَغْنا من قراءتها واستيعاب وقائعها؛ وقُمنا إلى فِراشنا، كُنَّا مَوجُوعى الظَّهر كالمضروبين بالسِّياط، بل لا تُفارقنا الوقائع أثناءَ النوم؛ فتجولُ فى العقل الباطن وتصُول؛ حتى يَستقرَّ الوجدان نحوها على أمر ما.

ثلاثون جناية أو يزيد قليلاً؛ أصبح متوسط ما تنظرُه محاكم الجنايات فى اليوم الواحد، أو بالأحْرَى ثلاثون بَلْوَى لابدَّ للقُضاة من قراءتها جيدًا وفهمها جيدًا؛ وإدراكِ نِقاط الضَّعف والقوة فى الدليل قبل أن يجلسوا على منصة القضاء، وإذا ما جلسُوا؛ لابدَّ أنْ يستمعوا ويُنصتوا لدفاع المتهم والمدعى بالحق المدنى إن وُجِد، وإذا ما انتهَتْ الجلسة العلنية؛ وخَلُوا إلى أنفُسهم للمُداولة؛ لابدَّ أن يفهموا من جديد فى ضَوْء كلِّ ما سَمِعوا؛ ليتلمَّسوا الحكم بالعدل بين الناس عن بيِّنةٍ، ما أصْعَبها مِهنة وما أشقَّها على أصحابها.

دارت فى ذهنى كل هذه الخواطر؛ وأنا أمنح نفسى قِسطًا من الراحة على مَضَضْ؛ خلال مُطالعتي لتلك القضية؛ التي

كانت أحداثها كخُيوط العنكبوت فى تداخُلها وتشابُكها، وإذا ما استقرَّتْ فِى وجدانى على نحو مُعين؛ تأتى صفحاتٌ تاليةٌ منها لتهدم ذلك الذى استقرَّ فتَنال منه؛ أو تدعو إلى إعادة التقدير والفهم من جديد فى ضوء ما استُجد.

كلُّ هذا لا بأسَ به فقد اعتدناه؛ وأصبح شيئًا عاديًا بالنسبة لنا؛ بل يُمكن القول إنَّنا جُبلْنا على مثل هذه النَّظرة لجميع الأمور؛ حتى فى أمور حياتنا الخاصة.

لم يكن تَشابُك الأحداث فى تلك القضية هو ما استَوقفنى وإن كان قد أجهدنى؛ وإنما تلك الصُّور المتحرِّكة للواقعة وشُخوصها؛ والمسرح الذى دارت عليه؛ ولأهَمُّ ما استوقَفنى هو زمان الأحداث وبطلها الأول.

نحن الآن فى العام ٢٠١٧ فى عصر أسموه عصر العَوْلَمَة تارةً، وعصر ثورة الاتصالات تارةً أخرى، ومن بعد قالوا عصر ثورة المعلومات، أو العصر الرَّقمى، أو الإلكترونى، أما المكان فهو قرية من قُرَى ريف مصرنا الحبيبة.

ولكن هذا الذى كان اسمه الرِّيف؛ والذى دارَت فيه تلك الأحداث؛ ليس هو الرِّيف الذي رأيتُه فى طفولتي

وعِشتُ فيه ردَحًا من الزمن فِي صِباي؛ وأدْركْتُه على سيرته الأولى من البَساطة والبَداءة ؛ وعمِلتُ فيه وكيلا للنائب العام منذ ما يَربُو على ثلاثين عامًا مضَتْ.؛ بل التطور المُذهل الذي ضرَبهُ فى كلِّ مَناحى الحياة. وقبل أن يهجُرَ أهله كل ما كان جميلاً.

ريفٌ جديدٌ تمامًا عن ذلك الذى كان، ريفٌ حلَّ فيه الأسْفلتْ محل المَدقَّات والطرُق التُّرابيَّة، وماكينات الصَّرف الصِّحى يُدوِّى صوتُها بدلاً من سيارات "كَسْح" الآبار البدائية، ووصَلات المياه النظيفة إلى دورات المياه التى يكسوها السيراميك والبورسلين لتَطرُد "الطِّشت" و"الأبريق" من المشهد.

حتى منظومة عمل الفلاح قد تغيَّرتْ، صار يجذب حبل ماكينة الرَّى ليديرها بدلا من "الطنبور" أو "الشادوف" وصار غيرها بمفتاح عَبْر "كونتاكْتْ" مثل السيارة، وولَّى زمن الحَصاد اليدوى؛ لتقوم الميكنة بكامل هذا الدور، تحصُد المحاصيل وتفْصِلها عن سيقانها، أو تَقْلَع الدَّرنات من الأرض بدلا من "النُورَج و "الفأس و "المِدراة".

وتحوَّلت بُيوت الطُّوب اللَّبِنْ إلى عماراتٍ عملاقة تخترق جدرانها أجهزة التكييف؛ وتتخلَّلُها المصاعد الكهربائية بدلاً من السَّلالم الخشبية أو الطينية.

وذهَبَ أدْراجَ الرياح الفُرْن البلدي؛ ليأخذَ مكانه الفُرن الحكومى الآلى أو النصف آلى؛ أو الفرن المنزلى بالغاز، وحَلَّتْ أطباق التقاط الأقمار الإصطناعية محل حطَبْ القطن والأذرة فوق السطوح، وشبكات "الواي فاي" وشبكات الإنترنت؛ محَل "سيمافور" سلك تليفون دَوَّار العُمدة.

وصار "الميكروويف" بديلاً "للكانون"، ناهِيكَ عن الغسَّالات الأوتوماتيكية، والثلاجات، و"الكِتْشِن ماشين" وماكينات الطَّحين الحديثة التى تجعل الدقيق من ثلاث درجات؛ بعد أن ولَّت أيام "الرَّحَى" والقادوس القديم وحَجَر الطحين.

وذهبَ السُّوق إلى غير رَجعة؛ بعد أن أنهَى حياته "السوبر ماركت" وخدمة التوصيل للمنازل من خلال "التُّوك تُوك" وانتشرَت مَغاسِل "الدِّرايْ كلين" للسِّجاد وللملابس بدلاً من "الطِّشت" أو شاطئ التِّرعة.

وانتشرَتْ صناعة المخبُوزات والحلوَى، و"البيتزا" والمشويات، والأسماك الجاهزة، والكافيهات، وصالات الأفراح؛ بعد أن كانت الاحتفالات تجرِى فِى "جُرْن" القرية.

ولم يسْلَمْ التعليم فى الرِّيف من هذه الحَداثة، فالحضَانات العربى واللغات بدلاً من الكُتَّاب والمدارس الحكومية، وسيارات التوصيل للمدارس بدلاً من الحمار والسَّيْر مَشْيًا على الأقدَام .

وفروع البنوك و"الفيزا كارت" لقَبْض المُرتَّب والمعاش، ورحِم الله كاتب الماهيات، ودفتر التوفير، والبوستة، ناهيكَ عن المحمول و"التابلت" اللذين لا يفارقان الفلاحين وهُم رُكوبٌ فوق الدَّواب .. إلخ.

حتى حُرمة المآتم لم تسْلَم من تلك الحداثة المجنونة، فدخَلتْ عليها بدعة تصويرها بالفيديو، لماذا؟ لستُ أدرِى، فهل الذكرى جميلة إلى هذا الحد؟!

بحق، تغيَّر كل شىء تغييرًا جذريًا، فِى الأدوات، ونمَط الحياة، وأساليب المعيشة، ولكنْ هل تغيَّر الإنسان إلى الأفضل؟ هل تغيَّرَ سلوكُ من يُعايشون هذا التغيير السريع؟

فى هذا العصر "العَوْلمى" تَنشَبُ معركةٌ واسعةُ النِّطاق بين عائلتين كبيرتين، لم تكن معركة بالنَّبابيت؛ كما كان يحدث أيام فتوَّات روايات نجيب محفوظ؛ ثم إلى عهدٍ قريب فى السبعينيات من القرن الماضى فى الأرياف والصعيد، أو كما كان يحدث فى أرياف ذلك الزمان أيام الجهل والفقر المُدْقع ووابور الجاز والظلام.

كان يسقَط فى المشاجرات شخصَان أو ثلاثة؛ ويُصاب عدد آخر بإصابات يكفى لعلاجها حلاَّق القرية؛ أو طبيب الوحدة الصحية، ولكن الآن تطوَّرت المعارك هى الأخرى كما تطورت الأرياف؛ فبنادق خرطوش؛ وآلية، ومولوتوف، وشماريخ، وأسطوانات غاز تُحمَل على الأكتاف وتُشعل النار فى فوَّهاتها للترويع والتَّخويف، ثم تُلقَى على عتَبات منازل الخُصوم.

جُثَث قتْلَى ومُصابين كُثْر، منازل وسيارات أُضرمَتْ فيها النيران، عيونٌ خُزقَتْ، أيادٍ وأصابع قطَّعَتْها تلويحات السِّنَج والسُّيوف، رؤوسٌ تكسَّرَت عظامها، زراعات حُرِثت وهى فى مَهْدها، وجرَّاراتٌ فى البحر أُلقيَتْ، ومحاصيلُ وُضِعَت

فيها النار، ورهائن خُطِفت، كل هذا في التحقيقات، وكلُّ هذا فى القرن الواحد والعشرين.

تَعْجَبْتُ لسَبب الحادث، إنَّ أحدهم كان يَستقلُّ دراجتة البخارية ومن خلفه زوجته، كانا يقصدان شاطىء البحر ليتنزَّها، وإذ مَرَّ بجاره الجالس أمام مسكنه ومعه اثنان من أصدقائه؛ تناهَى إلى سمعه تضاحُكهم، عَتَبَ عليهم، قالوا ضَحكنا مُصادفةً وليس عليك.

كان "دكتورًا" عائدًا من باريس، حصل على الدكتوراه فى القانون من أكبر جامعة من جامعاتها، ظنَّ أنَّ الضَّحكات كانت سُخرية منهما.

أصدر أوامره لذويه: الانتقامَ الانتقام، وراحت تحدثه نفسه: ألا يعْلمُون أنِّي "دكتور"؟ أُقتلوهُم .. حرِّقُوا عليهم دُورَهم، ليعلم هؤلاء الصعاليك من نَحن.

وكان له منهم السَّمْع والطاعة، وكأنِّى ببطل رائعة يَحى حَقِّى "قنديل أم هاشم" حين لجأ ذلك العالم إلى زيْت القنديل التماسًا للعلاج دُون سُبُل العلم .. لم تُغيِّر فرنسا فيه شيئًا .. لم

تُضِفْ الحَداثة إليه ولا إليهم؛ إلا وسائل وأدوات وآلات جديدة لارتكاب جُرمِهم.

تُستخرج جُثَث الأشخاص والأطفال من المنازل التى أُضرمَتْ فيها النار وهى فى وضْع القُرفصاء من الرُّعب؛ حين داهَمْتُهم النيران وحاصَرتهم أدخنتُها الكثيفة، يُنقل العشَرات إلى المستشفيات فى حالة حُروق من الدرجات الثلاث . و. و . إلخ.

يسُاق المجرمون إلى محكمة الجنايات؛ ليُزَجَّ بهم فى السجن جَزاءً وفاقًا، وربَّما كان هو المكان الوحيد الذى لم تنَلْ منه العَوْلمة !

مَلِكٌ أكثر من المِلِك

يقولون "مِلِكٌ أكثر من الملكْ" وهي جملةٌ سياسيةٌ شاعَ استخدامها فى عصر المَلكيات فى أوربا؛ وتعْني "لا تُدافع عن المِلِك أكثر مما يُدافع المِلِك عن نفسِه" .. وصار الناس يستخدمونها فى حال اهتمام شخص بمسألة شخص آخر أكثر مما يهتم بها صاحبها.

استوقفَتْني كثيرًا هذه القالة؛ لِما لاحظْتهُ من لسان حال مَن هُم مُلوكٌ أكثر من الملوك . وبدون أن يُطلَب منهم ذلك.

بل تفكَّرْتُ فى نفسية هؤلاء .. هل يرَوْنَ أو يعتقدون أنهم عندما يكونون كذلك؛ إنما يُرضُون شخص من يَهتمُّون به أكثر مما يهتمُّ هو بنفسِه؟ أم أنَّ طبيعة أعمالهم قد جعلَتْهُ سلوكًا جُبلوا عليه دون أن يشعروا؟ أم أنه أمرٌ يُرضي شعورًا ما لديهم؟.

ولكني أعتقد أنَّ أمثال هؤلاء ليسوا كذلك؛ وإنما هُم يجدون فى اهتمامهم بالملك أكثر من الملك نفسه؛ تحقيقًا لذواتهم .. وإحساسًا ذاتيًا بأهميتهم؛ ولَفْتًا للأنظار إليهم وإلى هذه الأهمية المزعومة التي يرونها فى أنفسِهم.

حين بداية عهدي بالعمل كوكيلٍ للنائب العام فى إحدى نيابات الأرياف؛ كان أحد جنود الشرطة المنُوط بهم العمل فى النيابة؛ يتولَّى مُرافقتي من الاستراحة إلى مبنى النيابة .. وهو مَبنى عتيق من الطُّرُز القديمة المتماثلة فى محاكم الأرياف والذي يقَع إلى جوار مبنى المحكمة الجزئية ويضمُّهما فِناءٌ وسورٌ واحد.

وكُنَّا حين نصعد إلى الطابق الثاني الذى تصْطفُّ على جانبيه غُرف متعددة هي مكاتب وكلاء النيابة، كان بطبيعة الحال أن يتواجد أعداد كثيرة من المواطنين؛ ممَّن لهم طلبات فى النيابة، أو غيرهم من المتَّهمين المعروضين مع المحاضر وآخرين من أهليهم ممَّن يرافقونهم، وكذلك أعداد من السادة المحامين المرافقين لهم، أو ممَّن لهم حاجاتٌ يَقضُونها، وعادةً ما يكون هؤلاء الناس مشغولين بهُمومِهم، كل منهم فى عالمه الذى لا يعلمه إلا الله.

وكان هذا الشُّرطيُّ الذي يرافقني؛ يَسْعَد أيما سعادة إذا كانت هذه الطُّرقة مزدحمة بالناس، فيصيح فيهم دون مناسبة

وبغير داعٍ وبصوتٍ جَهْوَريّ غليظ جاف: "سِكَّة وطريق" فيقف الجَالس .. وينزوي إلى الحائط من يتوسَّط الطُّرقة .. ويتحرَّك فى وقفته من هو واقف ساكن .. ويا ويلَ من لم يمْتثل من وجهة نظر هذا "المِلك" .. كان يُحمِلق فيه وكأنه ارتكبَ جُرمًا، بل وصل به الحال أحيانًا إلى حدِّ أن يدفعَهُ دفْعًا إلى جوار الحائط، أو يجذبه جذبةً قوية ليُوقفَهُ من جلسته رغمًا عنه، وكان يتكرَّر ذات الأمر إذا ما لمح أحد وكلاء النيابة يُغادر مكتبه إلى مكتب زميل آخر له؛ أو إلى دورة المياه.

وعلى الرغم من تنبيهي عليه غير ذي مرة ليُقلعَ عن أفعاله هذه .. إلا أنه كان سُرعان ما يَنسَى؛ أو قل لا يكْترث؛ ويعاود ذات القسوة مع الناس من جديد.

شغَلَني الأمر، لِمَ هذا التصرف الذى لم يُطلبْ منه؛ لا سيما أنَّ الطُّرقة تسمح بمرور موكب وليس فرد؛ على الرغم من وجود زحام، ولماذا والناس كلٌّ مشغولٌ بِهمِّه، وربما يكون هذا المشغول لا يرى من هو مارٌّ من أمامه، وماذا يُضيف هذا التصرف الأحمَق إلى الشخص المار الذي يرافقه هذا الشرطي؟ هل يظُن أنَّ هذا يُرضي وكيل النيابة؟ أم يعتقد أنَّ إشاعة

الخوْف هكذا بين الناس يُعدُّ إعلاءً من شأنه هو؟ لماذا ترويع هؤلاء المهمومين.

حذَّرتُه كثيرا فى حينه من مثل هذا التصرف الجاف فوجدتُ علامات الاستياء واضحة على معالم وجهه، ولم يملك سِوى الإجابة بعبارة "حاضِر".

وعلى الرغم من هذه "الحاضِر" إلا أنه لم يكبَحَ جِمَاح نشوته وهو يشاهد هذا المنظر للناس؛ وهم يتخبَّطون فى بعضهم، فيعود ليُكرِّر ما جُبل عليه، حتى كان أمرُ إعادته لمركز الشرطة وإحضار آخر بديلاً له.

وتمرُّ السُّنون وأعمل رئيسًا لإحدى دوائر الجنايات بمحافظة ريفية أيضًا، وكانت الاستراحة تقع فى طابق من طوابق المحكمة، وكان أحد الحرَّاس يرافقنا من الاستراحة بهذا الطابق الخامس إلى الطابق الثاني الكائن به قاعة المحكمة وكان ما بين هذا العمل وذاك ما يربو على ثلاثين سنة.

كنا نمُرُّ من لحظة هبوطنا بالمصعد لنبلغ مكان القاعة بطرقة طويلة يعقُبها أخرى أطوَلْ منها؛ وكلتا الطرقتين تفتح عليهما أعداد كبيرة من دوائر القضاء الجزئي والكُلِّي ومكاتب

الموظفين، ومما لا شكَّ فيه وجود أعداد غفيرة من الناس فى هذه الطرقات، ولم يكن التزاحم بالقدر الذي يتطلب تنبيه أي من المتواجدين، فقد اعتاد الناس على ترْك مسافة فى المنتصَف تسمح بمرور من يَمُر، حتى أن من يلِجُها لأول مرَّة يكتسب نفس سلوك المتواجدين؛ فيَنْتحى جانبًا قدْر الإمكان لتسهيل حركة المرور.

وإذا بهذا الحارس وعلى الرغم من كِبَر سِنِّه يدفع من يجده أمامه حتى لو كان مُنتبهًا لقدومنا، ثم لا ينظُر إليه ويوالي تقدُّمه ليَدْفعَ غيره وغيره وهكذا.

كنتُ الْلاحِظُ الشرَّر يتطاير من أعين الناس وهم يُتابعونه بنظراتٍ غاضبة بعد أنْ فارَقهُم بخُطوات، ولما يستديرون فيلمحون أعضاء الدائرة يسيرون من خلفه يفهمون الأمر ويبتلعون إهاناتهم ولا ينطقون، فأعتذرُ لهم على نحو يمتصُّ بعضًا من غضبِهم.

وبعد مناقشةٍ معه حول لماذا يفعل هكذا، وبعد عجْزِهِ عن إجابة منطقية، نبَّهتهُ إلى الإقلاع عن هذا السوك غير المحمود، ولكن هل أقلع عنه؟

بالطبع لم يُقلع، فكيف له وقد جُبلَ على فعْلتها سنين وسنين أنْ يُغادرها بين عشيَّةٍ وضُحاها؟ ولكنه هدَّأ قليلا من حِدَّتها فكان يدفَعْ شَخصًا ويتَخطى اثنين أو ثلاثة، ثم يفعلها مع غيرهم، وكلما نبهتهُ مرةً أخرى أجاب بعبارة "حاضِر" وكأن التاريخ يُعيد نفسه.

ولما وجدتُه لم يستطع امتلاك أمره، أعفيتُه من هذه المهمة واستبدلتهُ بآخر، ولكنه حزنَ حُزنًا شديداً وبدا مهمومًا، وعاد يرجو ليعود إلى مَهمته السابقة؛ مع وعدٍ بالإقلاع عما كان يفعل؛ فنزلتُ على وعده وأعدته مراعاة لكبر سِنِّه.

حاول الرَّجل جاهدًا ضبط نفسه، فكان يختلس النظراتِ إلينا وهو يتقدَّمنا ليلمح هل نُتابعه أم لا، ومن العَجَبِ ما لاحظتُه عليه حال سيره بعد مَنْعهِ من تلك الفِعْلة.

كان يُحرِّك ذراعه فى الهواء قُبالة كل شخص يمرُّ به وكأنه يدفعه، ولكن دون أن تستطيل إليه يده، فكأنما جوارحَهُ قد اعتادتْ ذات الفعل لا إراديًا؛ ليظلَّ ملِكًا أكثرَ من المِلكْ.

فداحُ نابِه

سمِعْتُ صوتَ جَلبَةٍ وحوارٍ ارتفَعت حدَّة نبرته خارج مكتبي مع الحارس "عم عبد الحميد" ضغَطْتُ ذِرِّ الجرس ليدخل قال :

- رجلٌ يريد الدخول ولم يذكر السبب.

- وهل كلَّفناكَ بمعرفة السبب؟ قُلتُها فى داخلي، وجعلتهُ يدعوه للدخول.

لم يَرُق كلامي لعم عبد الحميد؛ واستدار ببطء وملامحه تبدو عليها علامات الامتعاض الذي أخفق فى إخفائه؛ وخرج ليُدخِل الرَّجل وهو ينظره بعينٍ يتطايَر منها الشَّرر، ووقف إلى جواره وعيناه الغاضبتان لا تفارقانه.

رجلٌ طاعنٌ فى السِّن، تبدو عليه علامات الفقر والشَّقاء، يرتدي سِرْوالاً من القماش الذي لا يمكنكَ تمييز ماذا كان لونه من قبل، ويعلوه قميص من ذات القماش واللَّالَوْن، مَحنيُّ الظَّهر قليلا وتخرج منه العبارات بصعوبة وهو يلهث .. قال:

ـ "عايز" أعمل معاينة على بيتي؛ والجمعية الزراعية رفضَتْ.

كنا فى منتصف الثمانينيات من القرن الماضي؛ وكان التعدِّي على الأرض الزراعية بالبناء على أشُدِّه فى هذه الفترة؛ وكان الفلاحون يتحايلون على القانون بعمل "عِشَّة" أو أي بناء هيكلي فى الأرض الزراعية؛ ويطلبُون إجراء معاينة له لإثبات الحالة، وبعدها يقومون بالبناء ويحتجُّون أمام المحاكم بأنهم يبنون مكان بناء قديم .. فسألته :

ـ هل هذا البيت مَبْنيٌّ فى الأرض الزراعية ؟

قال :

ـ لا .. هو فى قلْب القرية .. وهو قديم مُتهالك ؟

ـ ولماذا إذَن المعاينة وما جدواها، فلن يُحَرَّرَ لك مَحضر إذا أعدْتَ البناء.

ـ قال :

ـ أعْرفُ ذلك، ولكنِّي إذا هدَمْتهُ بدون معاينة، فعند البناء سيَمنَعني جيراني من عمل المطلاَّت التي كانت موجودة به قبل الهدم، وهي عادة أهل الرِّيف.

تبسَّمتُ ضاحكا من قوله، وأعجبني ذكاؤه وراقت لي فكرته فسألته :

ـ مَن نبَّهكَ إلى هذا ؟

ـ نبَّهَني الزَّمن يا ابنى ، وما يدور بين الجيران من أهل القُرى.

وقدَّم الرجل ورقةً تحمل هذا الطلب وأسبابه، وجال بخاطري وأنا أطالعها؛ أنني لو كنتُ مكانه فى ذات الظَّرْف لما خطَرَت على بالي فكرته .. وأمَرْتُ له بإجراء المعاينة.

جُنحة لإثبات مِلكيَّة

كم من وقائعَ مدنيةٍ بحتة؛ ولكنها لا تَلبَث أنْ تَصُبَّ فوق رؤوس الشرطة ثم أعضاء النيابة وسَط ما يُثقل كاهلهم من وقائع جنائية؛ تَستنزفُ منهم من الوقت والجهد الكثير، ولكنْ فى النهاية لابد لهم فيها من كلمةٍ حَقنًا للدماء.

صوتُ وَقْع أقدامٍ خارج مكتبي؛ وكأنَّ جنود كتيبة عسكرية يؤدون التمرينات، وأصواتٌ ما لبثَتْ أن تعالَتْ وتداخلتْ حتى أضحَتْ أقوالهم غير مفهومة.

نزاعٌ حول دفن ميِّت، ذلك ما تحمله أوراق المحضر، وكوكبةٌ كبيرةٌ من عائلة الميت، وآخرون ممَّن يُنازعون فى أمر دفنه، يا إلهي حتى فى هذا الموقف تثور نزاعات الدنيا؟!

دعوتُ الطرفين؛ الشاكي والمشكو فى حقه، قال الأول وكان شابًا :

ـ لنا مقابر مُشتركة معهم، واليوم إذ بلَغْنا المقابر بجثمان والدي منعونا من دفنه.

هالَني الأمر .. هل لم يزل هناكَ تفكير على هذا النحو؟ وما ضَرُّ هؤلاء من دفنِه؛ حتى وإنْ كانت المقابر خالصة لهم، حتى فى مثل هذه اللحظات الواعظات عناد ؟!

قال الطرف الآخر:

ـ ليس شريكًا لنا، وإنْ كان معه أوراقٌ تثبت ذلك فليُظهرْها، كنَّا نقبَل دفنَهم فى مقابرنا وهم فقراء لا يملكون مقابر، ولكنهم الآن قد بنوا أربعة.

واجَهْتُ ابن الميت بهذا الدفاع المنطقي، قال :

ـ لدينا مقابر نعم؛ ولكن لأُثبت ملكيتنا فى مقابرهم !

كنتُ متعجبًا للوهلة الأولى من أولئك الذين يمنعون دفن جثة أيا ما كانت الأسباب، ولكن بعد سماع الطرف الآخر لم أعد أدري من أيهما أتعَجَّبْ ؟!

الدِّفاع للدِّفاع

لا تتقدَّم الأمم ولا تقوم قواعد المُلك إلا بالعدل، والعدلُ فيضٌ من القضاء ومن المحامين، وبهما معًا تتحقق العدالة، أو هما وجهان لعملة واحدة يتداولها أصحاب الحقوق.

ومهنة المحاماة من أعظم المِهن وأجلِّها قدْرًا، فما أعظَمها إذ تستظهر الحقائق لتحقيق العدل والعدالة، وتأكيد سيادة القانون، وما أقدسها إذ تحافظ على كرامة الإنسان وهو فى أحلك ظروفه؛ عندما يقع بين براثن الجريمة، فالمحامون هم عماد القضاء وسُنَّاده.

وكان من حظّ مصرنا الحبيبة؛ أن بزغ فى سماء قضائها نجومٌ كِبار من المحامين، يمشي الناس فى هُداها، أثْروا عدالتها، وأناروا فكرها، وأرْسُوا قواعدَ وقِيَماً فى الخُلق والأخلاق وفى العدالة، من أمثال هؤلاء سعد زغلول الذي أنشأ نقابة المحامين عام ١٩١٢، وابراهيم الهلباوى بك أول نقيب للمحامين فى مصر عام ١٩١٣، وعبد العزيز باشا

فهمى أول رئيس لمحكمة النقض المصرية سنة ١٩٣٠ والنقيب الثانى لنقابة المحامين، ومكرم عبيد، ومصطفى مرعى، والسنهورى، ونيقولا تُوما، وخليل ابراهيم، وغيرهم.

وكان أشد ما يشغلنى ولم يَزَل، حيادُ البعض - أقول البعض - من المحامين عن المصداقية فى أداء رسالتهم العظيمة، ولو علموا كم أنَّ فِطنة القاضى لهذا الأمر تنال كثيرا من قناعته بما يقول المحامى؛ لراجَعَ نفسه مرةً وألف مرة، فكيف يأنس القاضي إلى الاستماع إليه من بعد؛ وقد وجدَهُ يحيد عن الواقع، وعن المنطق؛ وهو يُدلي بدفاع لمجرد الدفاع.

والقاضي والحال كذلك يبدأ فى دخيلة نفسه التأهُّب لعدم الاعتداد بما يسمع، لأنه وقرَ فى يقينه من خلال خبرته ومن خلال الأوراق التى طالعها بتمعُّنٍ قبل استماعه للمرافعة؛ أنه صار يستمع إلى كلامٍ لمجرد الكلام.

فى واقعة قتل بَشِعة؛ بقصد سرقة سيارة المجني عليه، وإذ راح يقاوم الجُناة؛ أمطرَهُ أحدهُم بوابلٍ من طلقات بندقية آلية كانوا قد أعدوها لهذا الغرض فأردوه قتيلا فى الحال، وقد

تَصادَف وقوع الجريمة أمام مَقهى يضع كاميرات للمراقبة؛ فتم تصوير الحادث بوضوح تام، واعترفَ المتهمون الأربعة وأرشدوا عن سلاحهم المستخدم فى الحادث.

ثم يأتي الأستاذ المترافع ولا يُناقش الاعتراف؛ وهل كان وليد إكراه من أى نوع من عدمه، وإنما ليُشكِّكَ فى أنَّ الجثة التى تم تشريحها ليست جثة المجني عليه؛ أخذا بخطأ مادي لدى إثبات وكيل النيابة ساعة انتقاله لمناظرة الجثة؛ فكتبها صباحًا بدلا من مساءً، مع مقارنة ذلك بالساعة التى أثبتها الطبيب الشرعى لحصول التشريح، واستخلص سيادته من هنا أن الجثة ليست جثة المجني عليه.

قولٌ ضعيفٌ هزيلٌ لا يثير إلا السُّخرية الباطنة، إنَّ من يُطالع الأوراق ولو كان غير متخصص، لما وقفَ قَطُّ عند هذه الملاحظة المُضحكة، فالخطأ المادي واضح فيها.

ويُصرُّ الأستاذ على مناقشة الطبيب الشرعى؛ لا فى علاقة فِعل الجُناة بالوفاة، أو حول شيء يُمكن أنْ ينالَ من قوة هذا الدليل، وإنما فيما أثبتَهُ فى تقرير الصفة التشريحية حول كمية الدَّم التى وجدها فى تجويف البطن، فراح يسأل عن كم لتراً من الدِّماء فى جسم الإنسان.

ألم يُسائل الأستاذ نفسَهُ قبل المرافعة؛ ما جدوى ما يُناقش فيه، وكيف سيتلقَّى قُضاة الدعوى مثل هذا الدفاع لمجرد الدفاع ؟!

وفى واقعة أخرى تعترف المتهمة وعشيقها اعترافًا تفصيليا بقتل زوجها؛ لتخلو لهما ساحة ممارسة الخيانة التي بدأت قبل القتل بنحو سنة كاملة، ويترك الدفاع هذا الاعتراف؛ ويمسك فيما أثبتته النيابة من تحريزها للملابس الداخلية للمتهمة على إثر اعترافها بممارستها وعشيقها الرذيلة قبل قتل الزوج؛ ويطلب من المحكمة عرض هذا الحرز بالجلسة، نبَّهتهُ المحكمة بأنها لن تُعوِّل على هذا الحرز حتى لو ثبُتَ وجود آثار منوية فيه، ولكنه يتمسَّك بطلبه ويُراوغ ويُرهق المحكمة وُيضيع وقتها فيما لا طائل من ورائه.

إن تمسُّكَهُ بهذا الطلب كان من الممكن أن يكون ذا جدوى لو أنه قرينة تُساند دليلاً آخر ضعيفًا .. ولكنَّ المتَّهمَيْن اعترفا تفصيليا فى تحقيقات النيابة العامة، كما اعترفا ثانية لدى مواجهتهما بالتهمة فى المحكمة، ومثلُ هذا الأمر كثير.

مثلُ هذه الأمور تُعيدني فورًا إلى الأساطين العِظام من محامينا الذين حفروا أسماءهم بحروفٍ من نور فى ذاكرة المحاماة والعدالة والتاريخ.

أتذكَّرُ ما قاله ابراهيم الهلباوى بك نجم المحاماة فى مصر فى قضية ابراهيم الورداني؛ الشاب الذى قَتل بطرس غالى باشا رئيس الوزراء وقاضي محكمة دنشواى بسلاح نارى؛ وتم القبض عليه والجريمة مُتلَبسًا بها والسلاح النارى فى يده واعترف بارتكاب الواقعة نظرا لتوجُّه سياسي مُعين.

هل قال الهلباوى إنَّ المتهم عُذِّب فاعترف؟ هل قال بتلفيق الاتهام إليه؟ هل شكَّك فى أنَّ السلاح النارى الذي ضُبط فى يده؟ وهل؟ وهل؟ كلا وإنما احترم نفسه واحترم القانون وعقول القضاة، وكان صادقًا مع الوقائع ومع نفسه قال :

ـ"خدمتُ نحو الخمسة وعشرين عامًا محاميًا، ولم يخطر ببالي يوما سبب اختيار الرِّداء الأسود حُلة رسمية للمحامي الذي يتشرف بالدفاع بين يدي القضاء، ولا سبب انتخاب اللون الأخضر للوسام الذى تزدان به صدور من عُهدَ إليهم

إصدار الأحكام النهائية، أمَّا الآن وقد أبعَدَتْ عن قلبي هذه القضية كل راحة، وجعلتني مرآة لتلك القلوب المُنفطرة كأمِّ المتهم وشقيقته وباقي أهله، قُلتُ إنْ كان مُختار هذه الألوان أراد باللون الأسود رمز الحداد والمصائب للمحامي؛ الذي يمثل القائم بالدفاع عنه، وباللون الأخضر الذي يتحلَى به صدر القاضي؛ الرمز إلى الطاووس ذي الريش الأخضر وهو مثال ملائكة الرحمة؛ فنعم الاختيار، كأنما نحن هُنا فى هذه القاعة أمام أولئك القضاة المشبَّهين بملائكة الرحمة على سطح هذه الأرض؛ نقوم بمأمورية شبيهة بمأمورية أولئك الأحبار فى هياكلهم؛ الذين اتخذوا مِثلنا ثياب الحداد وهم يتضرعون إلى مبدع السموات والأرض؛ بأنْ يفيض على الأرواح الذاهبة إلى دار الخلود من سُحُبِ رحمته وغفرانه، فتقبلوا دعاءنا فى طلب الرحمة للأحياء؛ كما يتقبلها من أقامَكم حَكَمًا فى عباده، الذي علَّمنا أنه كما من صفاته العدل، فإنَّ من صفاته الرحمة؛ وعلَّمنا أنَّ الرحمة فوق العدل ".

ثم يقول مُوجِّهًا حديثه للمتهم وللتاريخ :

ـ الآن لي كلمتان أوجههما إلى المتهم بين يدي القاضى:

ـ الأولى، أنِّي إذا كنتُ قاسيًا عليه فى نَعْته؛ فلأني خاضع لقانون ليس دائما ملتئمًا فى أحكامه مع ما توحي به الذِّمة والضمير؛ لأنه مُضطَّر فى أحوال كثيرة رعايةً لسلامة المجتمع البشري وصيانته؛ أنْ ينظر نظرًا آخر فى تعريف الحِلّ والحرام، ونحن المحامين أحق بالأدب والخضوع لهذا القانون.

واستطرد يخاطب المتهم:

ـ فإذا قبل الدفاع عُذركَ أيها المتهم وعرضَهُ على قاضيكَ؛ فعليكَ أنتَ أيضًا أن تتقبَّل قبولاً حسنًا عُذر الدفاع فيما خالفكَ فيه من عقائدكَ السياسية.

الثانية، أنِّي إذا أنزلتكَ منزلة المجرمين العاديين؛ وطلبتُ لكَ الرحمة والغفران، فلأن ذلك واجب أيضًا يقتضيه الدفاع، ولكنْ إذا أَبَتْ نفسك أنْ تعيشَ بين السلاسل والأغلال؛ وأن تعيش مُعاملاً معاملة الأشقياء وقُطَّاع الطريق، فارفع نفسكَ عن هذا السبيل، واقبل نِبالَ الموت بقلب البواسل، فالموتُ آتٍ لا رادَّ له؛ إنْ لم يكن اليوم فغدًا.

اذهب إلى لقاء الله الذي لا يرتبط إلا بعدالته المجردة عن ظروف الزمان والمكان، اذهب مُودَّعًا منَّا بالقلوب

والعَبرات، اذهب فقد يكون فى موتكَ بقضاء البَشر عظةٌ لأمَّتكَ أكثر من حياتك، فإنَّ قلوب العباد إذا ضاقت رحمتها عليك فرحمة الله واسعة ".

ويترافع العظيم أحمد لطفى بك المحامي فى ذات القضية عن الورداني، فاحترم الاعتراف لأنه لم يجده وليد إكراه، واحترم عقول من يَستمعون إليه، احترم الحقيقة .. قال يخاطب المتهم :

ـ لقد هِمْتَ بحُب بلادكَ حتى أنساكَ ذلك الهيام كل شيء حولَكَ، أنساكَ واجبًا مقدَّسًا هو الرأفة بأختكَ الصغيرة وأمُّكَ الحزينة، فتركتُهما يبكيان هذا الشباب الغضّ، تركتهما يتقلبان على جَمر الغَضَا، تركتهما يُقلِّبان الطَّرْفَ حولهما، فلا يجدان غير منزل مُقْفر غاب عنه عائله، تركتهما على ألا تعود إليهما؛ وأنتَ تَعلم أنهما لا يطيقان صبرًا على فراقكَ لحظة واحدة؛ فأنت أملهما ورجاؤهما .

دفعكَ حُبكَ لبلادك إلى نسيان هذا الواجب، وحجَبَ عنكَ كل شيء غير وطنك وأمَّتك، فلم تعُد تفكر فى تلكَ الوالدة البائسة؛ وهذه الزهرة اليانعة، ولا فيما سينزل بهما من الحزن والشقاء؛ بسبب ما أقدمتَ عليه.

ونَسيتَ كل أمَلِكَ في هذه الحياة، وقُلتَ إنَّ السعادة في حب الوطن وخدمة البلاد، واعتقدتَ أنَّ الوسيلة الوحيدة للقيام بهذه الخدمة هي تضحية حياتك، أي أعز شيء لديك ولدَى أختك ووالدتك؛ فأقدمتَ على ما أقدمتَ راضيًا بالموت لا مُكرهًا ولا حُبًّا فى الظهور، أقدمتَ وأنتَ عالم أنَّ أقل ما يُصيبُكَ هو فقدان حريتك، ففي سبيل حرية أمَّتكَ بِعْتَ حريَّتكَ بثمنٍ غالٍ.

واعلم أيها الشاب؛ أنه إذا تشدَّد معكَ قُضاتكَ ولا إخالهم إلا راحميك، فذلك لأنهم خدَمَة القانون؛ وهذا هو السلاح المسلول فى يد العدالة والحرية، وإذا لم ينصفوكَ ولا أظنهم إلا مُنصفيك، فقد أنصفكَ ذلك العالَم الذي يري أنكَ لم ترتكب ما ارتكبته بُغية الإجرام، ولكن باعتقاد أنكَ تخدم بلادك، وسواء وافق اعتقادكَ الحقيقة أو خالفها، فتلك مسألة سيحكم التاريخ فيها.

وإنَّ هنالك حقيقة عرَفها قُضاتكَ وشهد بها الناس، وهي أنكَ لستَ مُجرمًا سفَّاكًا للدماء، ولا فوضويًا من مبادئه الفتْك ببني جنسه، ولا مُتعصبًا دينيًا يكره من يدين بغير دينه،

إنما أنتَ مُغرمٌ ببلدكَ هائمٌ بوطنكْ، فليكن مَصيرُكَ أعماق السجن أو جدران المستشفى، فإن صورتكَ فى البُعد والقُرب مرسومة على قلوب أهلكَ وأصدقائكْ، وتقبَّل حُكم قُضاتكَ باطمئنانٍ وإلى مَقرك بأمان ".

مُخَدِّر شيخ البلد

على الرغم من مشاغله السياسية؛ كان مكرم عبيد باشا يتردَّد على مدينة قِنا مسقط رأسه؛ للمرافعة فى محاكم الجنايات أو فى بعض الجنح الهامة، ومما شاعَ بين الناس من مرافعاته الشهيرة؛ قضية "شيخ البلد".

فى عام ١٩٤٣ اتُّهم شيخ بلدة "المَطاعْنة" بإحراز مخدر الحشيش، أثبتَ الضابط فى محضره؛ أنه اشتمَّ رائحة هذا المخدر فى جيب شيخ البلدة؛ وهو يجلس أمام مكتبه، وهذه الحالة فى القانون؛ هي إحدى حالات التلبس التي تُبيح للضابط القبض علي المتهم فورًا وبدون إذن من النيابة العامة، أجرَى الضابط تفتيشًا للمتهم أسفر عن ضبط قطعة من مخدر الحشيش فى جيب عباءته.

أُحيل شيخ البلدة للمحاكمة أمام محكمة إسنا؛ وكان محاميه العملاق مكرم عبيد باشا، طلبَ عبيد من المحكمة مناقشة الضابط فوافقته المحكمة:

س: ما الذى دعاكَ إلى تفتيش المتهم؟

ج: شمَمْتُ رائحة مخدر الحشيش تفوح من بين طَيَّات ملابسه.

س: ما المسافة التى كانت تفصل بينكما؟

ج: حوالى نصف متر لأنه كان يجلس أمامي وأنا كنتُ على المكتب.

س: إذن لم تُدرك المخدر سِوى بحاسة الشم؟

ج: نعم.

وهنا توجَّه عبيد إلى رئيس المحكمة ليطلب تكليف الضابط بأن يشتم ملابسه؛ لاستبيان ما إذا كان يحرز مخدرا من عدمه، أومأ رئيس المحكمة للضابط فاقتربَ من عبيد مُلتصقًا بكتفه؛ واشتمَّ ملابسه ونفى وجود مخدر معه.

وهنا كانت المفاجأة، أدخلَ مكرم عبيد يده فى جيبه لتَخرج بقطعة كبيرة من مخدر الأفيون، وهو مخدر أكثر نفاذا فى الرائحة من الحشيش واستكمل مرافعته قائلا:

ـ هذا أفيون .. وهذا الضابط قد التصق بكتفي واشتمَّ ملابسي ولم يكتشفه، فكيف نصدِّقهُ والمتهم لم يكن يجاوره؛ وانما كان يفصل بينهما مكتبًا.

هبَّ وكيل النيابة الحاضر بالجلسة ليُوجِّه إلى عبيد اتهامًا بإحراز مخدر الحشيش بغير قصد الإتجار أو التعاطي أو الاستعمال الشخصي؛ وفى غير الأحوال المصرح بها قانونا.

وكانت المفاجأة الأخرى، تبسَّم عبيد فى ثقة بالغة؛ وكانت إجابته أنْ أخرجَ من جيبه تصريحًا من نيابة المخدرات؛ بإحراز الأفيون لمقتضيات الدفاع على أنْ يَرُدَّه بعد انتهاء المرافعة.

رُفِعَت الجلسة؛ لتعود المحكمة للانعقاد بعد المداولة مُعلنةً براءة شيخ البلدة.

حكاية اِتلهي

كان مكرم عبيد باشا من نجوم المحاماة فى مصر؛ ومن مشاهير عصره، ومما ذاع من مرافعاته بين العامة؛ حكاية "اتلهى" وصحتها لغة : اِتْلهِ .. مِن تلَى .. تليْتُ .. اِتْلِ.

فى فبراير ١٩٤٤ كان عبيد يترافع عن متهم فى قضية قتل بمدينة قنا .. انخرَطَ الأستاذ فى المرافعة يصول ويجول بين أرْوقة الأوراق وأدلتها؛ ونقاط ضعفها .. وينهال بمعاول فصاحته مُفنِّدًا ما عسَى أن يكون منها قائما فى حق مُوكله، الجمهور يستمع وكأنَّ على رؤوسهم الطير.

راح يُدلِّل بقوة على وهَن الدليل وبراءة مُوكِّله، وبينما هو مُنهمكٌ فيما يُؤسِّس له؛ قاطعَهُ عضو النيابة الحاضر بالجلسة، التفتَ عبيد إلى رئيس المحكمة بنظرة لها معناها، أشار إليه الرئيس بكفّ يده بما يعني استمر.

عاد لينخرط فى المرافعة .. وعاد وكيل النيابة يُقاطعه مـرَّة أخرى، فى هذه المرَّة صـمَت عبيـد لبُرهـة ..تنبهَّـت المحكمـة ووجَّه الرئيس مُمثل النيابة إلى عدم المقاطعة.

يعود الأستاذ ليصُول ويجول، استشعر وكيل النيابة أنَّ الدليل ينهار، هَبَّ واقفًا، أنساه انفعاله تقاليدًا يجب مراعاتها. قال وهو يُشير بورقة فى يده :

ـ ولكن هذا التقرير للطب الشرعى لم يقُل ما يقوله الدفاع.

أدركَ رئيس المحكمة أنَّ ممثل الاتهام ربما يكون حديث عهد بحضور جلسات المحاكمة؛ فتبسَّمَ وأشار إليه فى صمتٍ ليجلس.

كان صدر الأستاذ قد ضاق مما حصَل .. التفَتَ إلى وكيل النيابة بعد أن كان قد أشاح بوجهه غيْظًا؛ وقال يخاطبهُ بصوتٍ هادئ جدًا :

ـ اِتْلهِ !

هبَّ ممثل الاتهام واقفًا .. طلبَ من المحكمة أن تُثبت فى محضر الجلسة إهانة الدفاع له.. التفتَ الأستاذ إلى المنصة مُبتسمًا .. ليقول في ثقة :

ـ أية إهانة هذه؟ وهل جُنَّ الدفاع لينال من هيبة النيابة العامة؟ حِصنُنا الحصين الذى يَذودُ عن حقوقنا ؟

إنِّي أطلبُ إليكَ سيدي أنْ تتلو ما بيدكَ .. اِتْله؛ اقرأه لنا!

ضحِكَ كل مَن فى القاعة لهذه التورية، ورُفِعَتْ الجلسة للمداولة.

عِطيفي و ضِيفي

فى فبراير ١٩٤٤ قصَدَ مكرم عبيد باشا مدينة قِنا للمرافعة عن مُتهم فى قضية قتل .. لم يكن فى القضية من دليل سوى ما قاله المجنى عليه للعمدة وهو يحتضر؛ أنَّ الذي أطلق عليه النار هو "عطيفي" وأسْلَمَ الروح بعدها إلى بارئها.

أمَّا التحريات فقد توَّصلتْ إلى أنَّ شخصين كانا على مسرح الحادث .. الأول هو "عطيفي" والثانى هو "ضيفي".

ترافع عبيد عن المتهم "عطيفي" وتناول الدليل بالتفنيد فقال:

ـ إنَّ الدليل الوحيد فى الأوراق؛ هو كلمة القتيل قبل موته بلحظة؛ قالها القتيل وهو فى حشرجَة الموت، ولكن الموت صارَعهُ وصرَعه.

قالها وهو يَخطو آخر خطوة فى طريق الحياة، وأول خطوة فى طريق الموت، صوتُه كان متهدِّجًا مضطَّربا، وكلامهُ غير واضح ولسانه مشلول.

وقد ثبُتَ وجود شخص آخر اسمه "ضيفي" والفرق اللفظي والسَّمعي بين "عُطيفي" "وضيفي" فرقٌ يسير؛ هو عبارة عن حرف واحد ،أو حرفين، وربما قال إنَّ الذي قتلهُ هو "ضيفي" ولكن لهذه الظروف سمِعَها العُمدة "عطيفي".

فهل يكفي هذا الدليل المضطَّربْ، لكي يُوضَع حبلُ الموتِ حول رقبته؟

أليْسَ الشكُّ يُفسَّر لصالح المتهم؟ ثُم تقضي المحكمة ببراءة عطيفي.

أعطني عقلَكْ

"إدِّيني عقلَكْ" قولٌ مِصريٌّ عامِّيّ، يقوله الناس عند سماعهم ما هو مُستَغربْ من الأمور.

ومن أمور الناس ما إنْ رأيتَ ظاهره لتملَّكتكَ الدهشة ونال من عقلك الدوار، وإن تعمَّقتَ فى تأمُّله لهالَك الفزَع وكِدتَ أن تفقد الصواب، وقد يكون لهذه الأمور لدى بعضهم مبررات، ولمثلها لدى غيرهم أسباب، ولكنها حين تشذُّ فى مُجملها عن المعتاد ، نكون قد صِرنا بين جنَباتِ غرائب النفس البشرية وبعض أسرارها.

كانت أوراق المحضر تنطق بما يتعيَّن أن يكون عليه الزَّوجُ من الثورة والاضطراب، أو قُل من الهياج والحقد والازدراء، ولكنه كان هادئًا متماسكًا ، تَخاله من فرْط اتزانه وكأن شيئًا لم يحدث فى عاطفته أو كرامته أو مشاعره.

تخيَّلتُ مما كان عليه من مثل هذا التماسك والهدوء والاتِّزان، أنَّ صدمة عصبية قاسية قد ألّمت به، أو أنَّ لوثة عقلية فادحة قد أصابته؛ فأفقدته الإحساس الطبيعي بما حوله

من أمور، بل ترجَّح لديَّ مما رأيتُ؛ الارتكان إلى هذين التخيُّلين معًا.

لم يكن الرجل شاكيًا ولا مَشكُوًّا ، وإنما كانت زوجته هي المشكو فى حقها، وما أن نودي عليها أثناء عرضها مع المحضر؛ حتى أسرع ليسبقها فى الدخول، استأذن فى أن يحكي تفاصيل الواقعة فأذنت له، بل إنه لو لم يطلب منِّي ذلك لكنتُ قد أوصَلتهُ إليه، فقد وددتُ إزاء تلك الحكاية أن أغوص بداخله، أن أعرف دخيلة نفسه وحقيقة مشاعره.

قال إنه زوج هذه السيدة، وأنه جاء ليُبين تسلُّط ومُبالغة جهة عملها معها، وكيف أنها قد تجاوَزت وزجَّت بنفسها فى أمور خاصة؛ لا يجب أن تنزلق إليها، لاسيما أنَّ زوجتي لم ترتكب جُرمًا فى حق أحد.

كان جليًّا أنه على درجة عالية من الثقافة والمعرفة، عرَّف بنفسه فإذا به من كبار الموظفين؛ ذي مهنة مما تُصبِغ أصحابها بسَعة الأفق ودقة التعبير وسلاسته.

استمر رابط الجَأش لم يزَل يحتفظ بهدوئه، وراح يُمهِّد لما أراد أن يُوَصِّلهُ، فقال:

ـ تزوجْتُها منذ عامين تقريبا، وبالرغم من أنَّ زواجنا كان تقليديا لم يسبقه ارتباط عاطفي، فأنني أحببتها حُباً جمًّا، وصارت المودة والمحبة هي أقوى ما يربط بيننا، أحسَسْتُ في خلال هذه الفترة الوجيزة؛ أنها صارت كل حياتي، أيقنتُ بعقلي ووجداني معا؛ أنها تبادلني مثل ذات المحبة والوئام؛ على نحوٍ يَفوقُ ما أكنُّه لها، وسارت الأمور على هذا النحو الجميل دون أن ألْحظ عليها أيّ تغيير فى المشاعر أو المعاملة، بل كانت بحقٍ نِعْم الزَّوجة ونِعْمَ الشريك.

سكتَ الرجل برهة؛ وسحَبَ نفَسًا عميقًا أخرجَه زفرة طويلة وأكمل بصوتٍ خفيض:

ـ أما هذه الواقعة، فقد جعَلَتْ منها جهة عملها قصة كبيرة، دون أن تفطِن إلى أنها شأن خاص؛ كان يتعين أن تنأى بنفسها عنه.

ثم أوجزَ ملابسات الواقعة التى انطوى عليها المحضر، لقد عاد من عمله مبكرًا فى ذلك اليوم، قرَّر أن يمرَّ بزوجته فى مقر عملها ليصطحبها معه، ولم يكن يتوقع ما قاله أحد العاملين بالمدرسة حين سأله عنها: "لقد انصرفَتْ فى موعدها كالعادة مع زوجها" !

وما لبث العامل أن فهِمَ كل شيء حين قال له الرجل: - ـ "أنا زوجها" !

سرَى نبأ الواقعة فى المدرسة سريان النار فى الهشيم، أجرت مديرة المدرسة تحقيقًا إداريًا على وجه السرعة؛ أسفر عن أنَّ الزَّوجةَ قد أثبتَتْ اسم ذلك الشخص فى بطاقة التعارف؛ باعتباره زوجها حتى يتسنَّى له زيارتها؛ واعتبرَت إدارة المدرسة أنَّ ما وقع منها يُعدُّ تزويرًا فى أوراق رسمية؛ فأبلغت مأمور القسم الذي حرَّر محضرا بالواقعة.

وحين كان الرجل يحكي، كنتُ أختلس النظرات إلى زوجته الماثلة بغرفة التحقيق إلى جواره؛ كي أرى على وجهها انطباعات ما يُقال فى حضورها؛ وتأثير ذلك عليها؛ وإذا بها وكأنها تستمع إلى مدح فيها وإطراء، بل كانت شامخة حادة النظرات، ثابتة الملامح والأعصاب بشكل غير عادي.

واجهتُها؛ فلم تُنكر تلك العلاقة ولم تجادل فيها، بل أسَمَتْها علاقة صداقة من نوع خاص لن يفهمها أحد، وراحت تُفصِّل بعد إجمال، فقالت:

ـ هي قصة حُب قديم بيني وبينه، هو ابن خالتي، وُلد حُبنا مع الصِّبا، ونما وترعرَع بعد النُّضج، وزادت حدَّتهُ بعد أن تزوج كل مِنَّا بغير حبيبه، لم أستطع يومًا مقاومة شوقه وجبروت طغيانه، ولكنه حب عُذري عفيف يعلَمَهُ زوجي؛ لم أُخْفِهِ عليه.

وبينما كنتُ أستمع إلى قول الزوجة، لم تغادر عينايَ وجه الزَّوج ولا عينيه، هالني ما كان عليه من ثبات أعصابه، والتحكم بهذا الشكل الرهيب فى انفعالاته، وبدلاً من أن تترك هذه الكلمات أثرا يُنبئ عن شيء من الضِّيق أو الضَّجَر، عاد والتقط طرَف الحديث ليقول:

ـ وحتى على فرْض صِدق قول المدرسة؛ من أن اسم صاحب السيارة تم إثباته فى بطاقة تعارفها باعتباره زوجها، فذلك من باب أنها تُحِّدد للمدرسة شخص من ترغب فى أن يزورها، كما أنَّ هذه الورقة مجرد إقرار فردي؛ وليست من الأوراق الرسمية فى شيء، فضلا عن أنَّ هذا البيان لم يُعَد لإثبات من هو الزوج، وإنما هو مسألة تنظيمية لا يترتب على مخالفتها جريمة، وبالتالي لا يَبقَى فى الأوراق سِوى أن زوجتي يزورها ابن خالتها؛ وهذا شأننا، وما كان لجهة العمل أن تتصدَّى له.

وعلى الرغم من غرابة هذا التفكير، إلا أنه لم يستوقفني كثيرًا فى حينه، واعتبرته تخريجًا ذكيًا قد يُخفي دخيلة نفس على قدر كبير من الدَّهاء، أو يُضمر الزوج من خلاله أمرًا لم يزَل فى مَكْمنه، فإنَّ كثيرا من الخُلطاءِ يَظهرون بمثل هذه المراوغة الكلامية؛ كي يساوموا إذا ما خلوا إلى بعضهم، ووقر فى ذِهني أنَّ ما يقوله الرَّجل ربما يكون إيهامًا للزوجة بأنه يُنقذها من أزمة كبيرة؛ كي يحصل منها على ما يَتغيَّا من تنازلات.

تمضي الأيام، وينقضي نحو عام تقريبا على حصول الواقعة، وإذا بنفس الرجل يمثُل أمامي - مصادفة - مرَّة أخرى ، كان متواجدا فى الشهر العقاري الكائن بذات المبنى الذى يضم النيابة والمحكمة، وحدث بينه وبين أحد الموثقين خِلاف حول نقطة قانونية؛ لم يستطع الموظف ولا رئيس المكتب إقناعه بها، فلجأ إلى النيابة شاكيًا.

ما أن رأيتُهُ حتى تذكَّرته؛ تذكَّرُت حكايته هو وزوجته وقريبها، تدَاعى إلى ذهني كل ما قال فى حينه، وكأنه لم يزل فى التوِّ يُتلى على مسامعي.

وحين كان يقصُّ موقف المُوثِّق معه، وجدتُ الفضول المهني – والأدبي – يدفعني دفعًا إلى استقصاء حقيقة ما كان، والوقوف على مدى صدق تخميني؛ من أنه لم يكن صادقًا في دفاعه عن زوجته فى حينه، وأن ما قاله عندئذ لم يكن عن قناعة، وإنما من قبيل الدَّهاء تأهُّبا للمساومة عند تطليقها.

لم أستطع مقاومة ذلك الفُضول الطاغي، أشرتُ إليه ليجلس فاستجاب، وبعد سماع أقواله فيما جاء من أجله، لم أجد غضاضة فى أن أطوِّف من بعيد حول ما قصدتُ فسألته :

ـ ما حالتك الاجتماعية الآن ؟

يبدو أن الرجل قد فَهم على الفور ما أرمي إليه، تبسَّم ضاحكا من قولي، ثم قال ولم تزل ابتسامته على شفتيه :

ـ أنا وزوجتي فى أحسن حال، وقد رُزقنا بمولود جميل، أمَّا هو – ويعني بذلك قريب زوجته – فقد سافر إلى الخارج هو وأسرته، ثم انفرجت شفتاه عن ابتسامة أعرَض؛ ونظر فى عينيَّ وكأنه يود استقراء رد الفعل وقال بذات الصوت الهادئ:

- و مازال يتصل بنا!

وبدلا من أن تُشفي هذه الإجابة فضولي؛ فتَحتْ أمامي كمًّا هائلا من علامات الاستفهام، وأطرَقْتُ محاولا أن أقف بالحوار عند هذا الحد، ولكني لم أستطع كبح جماح ذلك الفُضول، فابتسمتُ لقوله وسألته مرة أخرى:

- لماذا ؟

اعتدل الرجل فى جلسته، وهزَّ رأسه مُستجمعًا أفكاره وكأنه سيقول قولاً هامًا وأضاف :

- هو ابن خالتها، وعلاقتهما ببعضهما لم تكن مجهولة بالنسبة لي، فأنا أعلم بها من خلالها منذ اللحظة الأولى لخطبتنا، نشأت بينهما قصة حب طفولي عُذريّ؛ استمرَّ حتى بلغا مرحلة الشباب، ولكنها الخلافات الأسرية التي حالت دون إتمام ارتباطهما، ورغم ذلك فقد استمرَّ حبهما لبعضهما حتى أصبح بمنزلة حب شقيقين، فضلا عن صلة الدَّم، وكان يحادثها وتحادثه تليفونيا فى حضوري وبصورة طبيعية؛ فى إطار الوصف الذى وصفتُه هذا، ولم يمنعها ذلك من أن تحبني

بنفس الدرجة ويزيد، ولكني لم أكن أعلم بأمر التقائهما من خلال المدرسة، ولكني واثق بأنه لقاء عادي جدا، ولذلك فإن أمر المَحضر الذي تسبَّبت فيه المدرسة لم يُزعجني؛ لأني أعلم حقيقة تلك العلاقة؛ فهي لا تعدو أن تكون علاقة اثنين من الأقارب، ثم أردفَ ليُكمل تسبيب قَناعته:

ـ فإذا كان الأمر كذلك؛ فلماذا تكون عقولنا جامدة؛ تُحرِّكها نزعات موروثة؛ أساسها الغيرة المُطلقة من الآخَر؛ لمجرد الرفض الوراثي دون إعمالٍ للفكر أو العقل والمنطق.

عند هذا الحد من الحوار، اقتنعتُ تمامًا أن الرجل كان يعي ويعني كل ما كان يقول فى حينه.

انتهى تحاورنا وذهبَ إلى حال سبيله، أما حكايته فقد ذهبت بي مرةً أخرى إلى التأمل من جديد فى واحدة من غرائب النفس البشرية وأحوال البشر .. حتى كأني سأقولُ لكَ: "إدِّيني عقلَك"!

المخدرات

أزعّجَهُ ما تناهَى إلى سمْعِه، تمَّ اقتحام عرينه في غيبته ودونما حساب لهيبته وسطوته، استدعَى مساعديه الثلاثة إلى اجتماع عاجل؛ وقفوا أمامه يرتعدون، يسألهم وهو يُلوِّح فى وجوههم "بالسِّنجة" الطويلة التي اشتُهرَ بحملها:

ـ هل صحيح أن "شَلْضَم" جاء إلى هُنا ليبيع البانجو فى منطقتنا؟

نظرَ بعضهم إلى بعض فى صمتٍ بعيون اتسَّعت إلى حدِّ الجُّحوظ؛ ثم عادوا لينظروا إليه ولم ينطق أحدهم بحرف.

عاد ليسألهم ثائرًا كالثَّوْر صائحًا بصوت مُرعب:

ـ تكلموا يا كِلاب.

ارتعدَتْ فرائصهم، اهتزَّتْ سِيقانهم لتصْطَك مع بعضها وهُم ما زالوا صامتين.

استكمل الزعيم حديثه من دون انتظار إجابة منهم:

ـ هذا الولد لابد من تربيته، ليعلم كيف يتجرَّأ علينا، ائتوني به حالا.

أجابوا فى تمتمة وخوف ومَخارج الألفاظ تَضطَّربُ بين شفاههم:

ـ حا.. حا .. حاضر يا معلم.

استقلَّ كل اثنين منهم دراجة نارية؛ وأحرز اللذان يستقلان من خلف السائقين كلّ فرد خرطوش، وملآ جيوبهما بأعيرة نارية؛ وقصدا منزل "شَلضم".

هبطَ أربعتهم من فوق الدراجتين الناريتين، نادَى الزعيم عل شَلضم بصوت مخيف هزَّ أرجاء الشارع، هُرعت أمُّه إلى الشرفة لتخبره بعدم وجوده.

نظر زعيمهم إلى حاملي السلاحين الناريين نظرة يفهمان معناها، أخذا وضع الاستعداد، أمْطرا البيت من الخارج والبيوت المجاورة بوابل من الطلقات؛ التي تركت آثارها على الجدران والنوافذ والأبواب، ثم استقلوا الدراجتين وانصرفوا.

أصدر الزعيم أوامره للبحث عن "شلضم" قال أحدهم إنَّ مكان تجارته فى المخدرات ميدان كذا، توجهوا إلى الميدان،

كان شَلضم يستقل "توك توك"، لمحَ موكبهم، استشعرَ ما يمكن أن يَحدَث، أمَر سائق "التوك توك" بتغيير اتجاهه وأن يزيد من سرعته، استجاب السائق، أبصروه على هذه الصورة، لحقوا بالتوك توك.

كان سائق التُّوك تُوك مُحترفًا، زاغَ منهم، استمرُّوا فى مُطاردته، لحقوا به دون أن يعترضوه، نزل أحدهم وأطلق عليه عدة أعيرة نارية، أصاب عيار منهم جِسم التوك توك، وأصاب عيارٌ آخر قائده، فسقط منه أرضا.

نزل شَضَلم وراح يجرى، لحقوا به، أطلقوا عليه النار، أصِيَب فى قدَمِه، سقَط أرضًا، اقتربَ منه الزَّعيم، وضع رجله فوق صدره ليشل حركته، راح شلضم يتوسَّل، أطلق الزعيم على صدره عدة أعيرة نارية، فاضَت الروح إلى بارئها.

انتابَ الذُّعرُ والترويع المارة فى الميدان الذى كان مسرحًا للأحداث، لم يجرؤ أحد على الاقتراب، أبلغوا الشرطة وشهد الجيران والمارَّة.

همَّ رجال الشرطة بالبحث عنهم، سقطوا جميعا فى قبضتهم، يحالون إلى المحاكمة الجنائية، تحيل المحكمة أوراق

الدعوى إلى فضيلة مفتى الجمهورية، يوافق المفتى، تقضي المحكمة بإعدامهم جميعًا، فهل يرتدع أُولو مثل هذا الإجرام الذي شاع مؤخرًا في مجتمعنا؟!

الدَّمع الحزين

كُنتُ قد انتهَيْتُ من مطالعة ذلك المحضر الذى كان بين يديَّ؛ ثم دعَوتُ طرَفيْه للدُّخول، وقبل أن أتابع دُخولهما انشغَلْتُ بحديث عبْرَ الهاتف استمرَّ لنحو أقل من دقيقة.

فرغتُ من حديثي، عُدْتُ إلى المحضر وطرَفيْه؛ فإذا بطفلين يقفان أمامي، الأولى فى حوالي السابعة عشرة من عمرها؛ وتحمل بين يديها رضيعًا لم يزَل مولودًا ، والثاني فى عُمْرٍ يُناهز عمرها، ظنَنْتُ أنَّ دُخولهما قد تم بطريق الخطأ، فعُدتُ لأنظرَ فى الأوراق من جديد؛ ثم سألتُ الحاجب الذي أدخلهما:

ـ أين "فلان وفلانة"؟

وقبل أنْ يُجيب الحاجب؛ أجابا هُما فى همْهَمةٍ وخَوْف أنهما المعنيان.

لم أصدِّق ما رأيْتُ، حَملقتُ فيهما صامتًا من هول المفاجأة، إنَّ الأوراق تنطوي على بلاغ من أُمٍّ تطلب فيه التنازل عن وليدها؛ وتسليمه إلى إحدى دورِ الرعاية؛ لأن والده وأهله رفضوا استلامه منها، ولما تَكشَّف الأمرُ لرجال الشرطة توصلوا إلى الحقيقة وحرروا محضرًا بالواقعة.

ولم يكن مَرَدُّ هذا العَجَبِ أنَّ أُمًّا تتخلَّى عن وليدها؛ فهكذا تبدأ البلاغات لتُخفي من وراء سطورها قِصصًا فظيعة، وإنما كان العَجَب أنَّ هذه الطفلة الماثلة أمامي هي هذه الأم، وأنَّ أباه هو ذلك الطفل الواقف إلى جوارها.

عُدْتُ لأتفحَّصَ الوجهين الماثلين أمامي من جديد، إنَّ أمّ الطفل لم تزَل طفلة، ولم يزل أبوه كذلك، ويبدو أنها لا تدرك حتى هذه اللحظة مَا معنى أنها وَلدَتْ، ولم تستشعر حتى الآن أنَّ بين يديها رضيعًا تضمُّه إلى صدرها النَّحيف، بل إنَّ البادي من واقع بلاغها؛ أنها تعتبره دُمية لا تحب أن تحتفظ بها.

إنها وقد صارت أمٌّ لم تزَل فى حاجة إلى أُمٍّ ترعاها وتَكْلَؤها حتى تبلغ أشُدِّها، أمَّا والده فلم يزَل هو الآخر طفلا، إنه لم يتجاوز بعد الثامنة عشرة من عمره؛ وقف زائغ البصر لا يُدرك شيئًا مما يدور من حوله، ولا يُدرك حقيقة موقفه؛ وقد سِيق كمتهم إلى ساحة الاتهام المفزعة، بيْدَ أنه قد تَحصَّن عند كل سؤال بتلك الكلمة الممقوتة؛ التى كثيرًا ما أتعَبَتْ المحققين وحيَّرتْهُم، فلم يُجب إلا بها: "مَحصلْش"!

ناقشتُهما تفصيلاً فى ظروف الواقعة وملابساتها؛ فانزاح السِّتارُ عن باقي فُصُول المأساة.

إنَّ هذه الطفلة الأُمّ ابنة لزوجين عاملين؛ يخرجان معًا للوظيفة ويترُكانها وحيدة بالمسكن؛ أو تعود هي إليه قبلهما، وكان حال هذا الطفل الأب كذلك، يَخرج أَبَواه للعمل كدأب والديها؛ أو يظل هو بالمسكن؛ أو يعود إليه قبلهما، وهنا وجد الشيطان غايته، فكان بين الطفلين الجارين ما كان، فأصبحَتْ الطفلة فى غفلة من أهلها أُمًّا؛ وصار الطفل دون أن يدري متهما.

عجيبٌ ما يُساق إليكِ من الوقائع يا ساحة الاتهام، إنه الإنسان فى أَجْلَى صُوره المتناقضة، إنه قابيل وإنه هابيل، هو القاتل وهو المقتول، هو المجرم وهو الضحية، هو الملاكُ أحيانا؛ وهو الشيطان فى الأَغْلَب الأعَمّ.

إن الأبناء فلذات الأكباد لا شك، من أجلِهم كان السعي والكَدّ والشَّقاء، ولكن فى غَمْرة كل هذا؛ تأخذنا الدنيا، ويكون فى ذات الوقت التَّواكُل والتَّفريط وعدم الاكتراث، وتلك هي الكارثة، وفى ذات الوقت المعادلة الصعبة.

وجيء بوالد الطفلة الأم لمناقشته، أخيرًا يَسْتَشعرُ حجم هذا الذى جرَى، يَنْسَكِبُ الدَّمع من عينيه غزيرًا حزينًا؛ مكتومًا مُؤلمًا، ويَنْهمرُ مثلهُ من عَيْني ابنته أبْحُرًا؛ فكأنما فى هذه اللحظة فقط قد شَعر بوجود ابنته، وكأنها في التَّوِّ قد اكتشفت أباها، ويختلط منهما الدمع الحزين؛ فينقلب نحيبًا مُرًّا مُؤلمًا؛ صار ينعي ضَياع الحِرص والحذَر.

إنَّ الحادثات تُزيح السِّتارَ عن النفس؛ فيظهَر ما كان نائمًا أو هاجعًا فيها، وإنَّ زَلزلة المواقف الحالكة، تُوَلِّدُ فيها شَررًا سرعان ما يجعله الألم لهبًا، ينصهر من هوله؛ ما يكون قد رانَ على العقول والقلوب الغافلة من غُبار الحياة؛ فيرَى الإنسان حقيقة نفسه، وما كان منه من إهمال وتقصير؛ ولكن بعد فوات الأوان !

رَخامَة

ضربه الملَل من استطالة عمل الكمين، جلس على كرسي يُتابع استيقاف مُخبريه للسيارات المُشتبه فيها، كان يرافقه ضابط صغير تنحصر مهام عمله في تأمين الكمين، عنَّ للضابط الصغير سؤالٌ وجَّههُ للضابط الكبير قائد الكمين:

ـ لو أني أردتُ العمل في المباحث ماذا أفعل؟

ضحك الضابط الكبير وأرادها دعابة ليَكسر ذلك الملَلْ؛ قال:

ـ تُرخِّم على المشتبه فيهم.

سأله متعجبًا:

ـ ماذا تقصد؟ وكيف يكون ذلك؟

ابتسَم الضابط وطلب منه استيقاف السيارة القادمة وإحضار من فيها، كان بالسيارة أربعة من الشباب، أنزلهم الضابط وفتَّش المخبرون السيارة فلم يعثروا على أي ممنوعات.

خاطَبهم الضابط:

ـ احكوا لي عما حدث؟

تعجَّبوا:

ـ ما الذي حدث يافندم لنحكي عنه؟

قال:

ـ الذي حدث؛ احكوا عنه.

عادوا يتعجبُّون:

ـ ما هو؟

قال:

أنتم تعرفونه.

نظر كل منهم إلى الآخر، وقال كبيرهم:

ـ ما هو يافندم وسنحكي لك عنه.

قال وهو يَمُدُّ ساقه ولم يزل جالسًا على مقعده على جانب الطريق:

ـ هل تتصورون أني مُنتظر لما ستحكون؟ إنما أردتُ أن تقولوه بأنفسكم.

اقترب منه الضابط الصغير ليسأله همسًا في أذنه:

ـ عما تسألهم يافندم؟

أجابه بمثل ذات الهمس:

ـ عما حدَث

ـ وما هو؟

ـ ستعرف

ـ هل لديك إخطار عن جريمة ما؛ أو قضية معينة لم يزل البحث فيها جاريا؟

تبسَّم الضابط الكبير وهزَّ رأسه يُمنة ويسرة بما يعني لا، فسأله الضابط الصغير:

ـ ولماذا تُحقِّق معهم؟

أجابه باتسامة أخرى:

ـ رَخامة!

كان قد انقضى على هذا الحوار ما يجاوز النصف ساعة، في حديث كالألغاز؛ حتى وقَر في ذهن الضابط نفسه أن هناك موضوعًا.

انتهت فترة عمل الكمين وحان موعد انصراف الضابطين ورجالهما من الشرطة السريين وعودتهما إلى ديوان القسم، خاطب الضابط رجاله:

ـ هاتوهم معنا

اقتاد المرافقون لهم الشُّبان الأربعة فى البوكس وقاد أحد

المخبرين سيارتهم.
في الطريق يسأل الضابط الصغير الضابط الكبير:
ـ لماذا جئت بهم معنا يافندم؟
نظر إليه مبتسما وأجاب:
ـ لنعرف ماذا حدث؟
ـ وما هو؟
ـ لا أدري، وهم سيقولون لنا.
تعجَّب الضابط الصغير واستغرب ما يحدث فسأله:
ـ أخبرني .. هل تُخفي عنِّي أمرًا ما؟
ضحك الضابط:
ـ أمر ماذا، ألم تستوقفهم أنتَ إذ تَصادَف مُرورهم وأنتَ تتحدث معي؟
دلف ضابط المباحث إلى مكتبه وجاء بالشبان الأربعة مرة أخرى ليسألهم معا:
ـ هل فكرتم؟ هل ستحكون لي ما حدث؟
ـ قالوا لا شيء عندنا.
أمر معاونيه بتنحية ثلاثة منهم واستبقاء أحدهم ثم عاد

ليسأله:

ـ ما اسمك:

ـ سعيد

ـ قل لي يا سعيد ما حدث.

لم يُزد سعيد عن عبارة، لا شيء عندي لأحكيه، ولكن الضابط لمح توتُّرا على أعضاء جسمه، واصفرار وجهه، ولم يكن بذات الجأش الذي بدأ به.

أمر الضابط بوضعه منفردا في غرفة مجاورة؛ وجعلهم يأتون له بغيره، سأل الذي يليه:

ـ ما اسمك:

ـ خالد:

قل لي يا خالد ما حدث

ـ ما هو يافندم؟

ـ عُدنا مرَّة أخرى للمراوغة يا خالد؟ خذوه وضَعوه بعيدا عن سعيد.

جاءوا بالذي بعده، ثم بالأخير، سأل الضابط الشاب الأخير:

ـ ستقول ما حدث أم لا؟

ـ يافندم لم يحدث شيء، ولو كان قد حدث واجهني به.

ـ لن أقول لكَ حتى تقول أنت أولا.

استغرق الضابط في هذا الحوار الذي تنقل من خلاله من شاب إلى غيره ما يقارب خمس ساعات، كان الضابط الصغير حاضرا، وكان ينظر لضابط المباحث باستغراب شديد لما يحدث، ويسائل نفسه: ماذا يفعل؟ وعن أي شيء يبحث؟

عند انصراف الشاب الأخير ناداه الضابط مرة أخرى وسأله:

ـ هل أنت متأكد أن شيئا لم يحدث؟

ـ نعم يافندم

لا عليك؛ ولكنَّ المطلوب منك هو شيء واحد لأخلِّي سبيلكم، وأنتَ تنصرف من أمامي صِحْ: يا سعيد الضابط عَرف كل حاجة يا سعيد، لم يجد الشاب مناصًا من أن يوافق، صاح فيه الضابط بصوت عال حتى يتناهى إلى سمع سعيد فى الغرفة المجاورة:

ـ انصرف، ستعرفون الآن كل ما حدث، انصرف .. انصرف.

نفَّذ الشاب ما هو مطلوب منه وهو ينصرف، راح يصيح بصوت عال: الباشا عرف كل حاجة يا سعيد، الباشا عرف كل حاجة يا سعيد، ظل يُردِّدُها وهم يقتادونه إلى بعيد حتى خفَتَ الصوت وهو يقولها.

سمع سعيد صيحات صديقه وهو في غرفته التي وُضِع فيها، ثم جيء به مرة أخرى إلى الضابط، وقف أمامه وذراعاه إلى جانبه مشدودا رافعا رأسه إلى أعلى في وضع الانتباه الميري، ولكن في هذه المرة وجد عن يمينه وعن شماله أربعة غلاظ شداد من المخبرين.

لم يتحدث معه الضابط فور دخوله، ولكنه بَقي صامتًا لفترة جاوزت الدقيقتين؛ وهو ينظر إليه في صمتٍ مُتطلِّعا إلى وجهه ومُركِّزا على عينيه، ثم غادر مقعده ليدور من حوله.

ظنَّ سعيد أن مكروهًا سيلحق به، أو ربما استحضر ما يراه فى المسلسلات والأفلام حينما يُصوِّرون الضابط وهو يحوم حول المتهم أولاً ثم ينهال عليه ضربًا.

دار الضابط من حوله عدَّة مرَّات فى صمت، ثم عاد وجلس على مقعده وعاد ليُحملق فيه بذات الصمت، ثم راح يتحرك بالمقعد يمينا ويسارا وعيناه لا تغادران سعيد، ثم هبَّ واقفا ليحدثه:

ـ سعيد ...

وقبل أن ينطق الضابط حرفا آخر، قاطعه سعيد:

ـ سأقول كل شيء .. سأقول كل شيء.

سيطر الضابط على انفعالاته، كان قد أعطى ظهره لسعيد، التفت في حركة سينيمائة كمن يستدير لكاميرا تنفيذًا لتعليمات المخرج، وابتسم قائلا:

ـ ألم أقل لكم يا سعيد منذ البداية، ستقولون ما حدث؟ اجلس يا سعيد على هذا الكرسي.

جلس سعيد على الكرسي الكائن أمام مكتب الضابط، ثم ما لبث أن هبَّ واقفا وقال:

ـ ولماذا أجلس يافندم، هيا بنا لأُريكَ الجثة.

بُهِت الضابطان لما سمِعا، نظر كل منهما إلى الآخر وهو فاغرٌ فاه من شدة المفاجأة، نادى الضابط الكبير المخبرين، جهزوا البوكس والقيود الحديدية.

حتى هذه اللحظة لم يكن الضابط الكبير واثقا فيما حدث، ظنها خدعة من الشبان ليستنقذوا أنفسهم مما تعرضوا له من استجواب دون مُقتضى، كان يتساءل في ذلك مع نفسه وهم في الطريق إلى مصرف حدَّده سعيد، حتى بلغا المكان.

عند نقطة محددة طلب سعيد من الضابط التوقف، نزل الجميع من البوكس والشبان الأربعة مقيدون بالكلبشات، أشار سعيد إلى المكان، وقال هو ها هنا.

شمَّر أحد المخبرين عن ساقيه، كان في باطن شط المصرف وَتدٌ مربوط فيه حبل غليظ؛ ومُغطًّى بالحشائش، قال سعيد إن الجثة مربوطة بهذا الحبل؛ فضلا عن حَجَر رُبطت به ليجذبها إلى القاع، شدَّ المخبرون الحبل، نزل أحدهم إلى المياه ليساعد فى رفعها، رجل خمسيني ضخم الجثة مذبوح من رقبته ذبْح الشاة، واستكمل المتهمون اعترافهم:

ـ القتيل من سكان الدقي، كان يعمل خفيرا لفيلا سيدة من هناك ولها شاليه في الساحل الشمالي، وكان الخفير السابق صديقا، فلما أنهَتْ عمله وجاءت بالخفير الجديد، توجه الخفير السابق وسرق مصوغاتها فرآه الخفير القتيل، قَصَّ عليهم صديقهم القصة، أشاروا عليه بوجوب قتله، قصدوا جميعا الدقي واستدرجوه إلى هنا وذبحوه وألقوا بجثته في المصرف، ثم كانت عدالة السماء وإرادة الله حين تتجلى لتكشف سِتْرًا.

البَطة والمحامي

ما مِن مَللٍ أُصيبَ به أحدٌ قَطُّ، كذلك الذي يُصيب مُمثِّل الاتهام فى جلسة الجنح بمحاكم الريف، إنه الجالس الصامت على يمين المنصة، إلا إذا طلَبَ منه القاضي شيئًا وغالبًا لا يطلب؛ لأن القاضي لاوقت لديه حتى ليلتفِتَ صَوْبه، ومن ثم يُشاغل نفسه بمُتابعة انفعالات المتهمين وذويهم، أو المجني عليهم وأهليهم ، أو أي من المحامين أو الحضور، أو ما يصدر عن كل هؤلاء من مواقف؛ سواء أكانت مؤلمة أمْ مُضحكة، ثم الشرود للتفكير فيما لا تدع ظروف العمل مجالا للتفكير فيه من الأمور؛ سواء العامة منها أم الخاصة.

وما يلبث القاضي أن ينظر رُبْع عدد القضايا المدونة بالرُّول؛ إلا وسرعان ما تُخيِّم الرَّتابة على جو القاعة، ما لم يأتِ أحد المتهمين أو المحامين أو جمهور الحضور بموقف فكاهي يستشعر الجميع أنه تلقائي بَحْتٌ غير مُفتعل، أو أنه ابن لحظته، وما عدا ذلك فإنَّ الملل الفظيع يكون هو حظ وكيل النيابة؛ فيأتيه سلطان النوم على عَجَل، ويهوي بكل طاقته

فوق رأسه، فيجعل من كل دقيقة تمر ليلا طويلا سرمدًا، ويظل هكذا حتى يأتيه الفرج ويرفع القاضي الجلسة ، وهنا يستشعر – وكيل النيابة – أنه قد فُكَّ أَسْره.

إنها روايات واحدة وإنْ اختلَفَت شُخوصها ومسارح الأحداث فيها، بيْدَ أنَّ هذه الروايات كثيرًا ما تتمخَّض عن مواقف ومفارقات؛ سرعان ما تطيح بمثل هذا الكسَلْ من فَرْط طرافتها، وتبعث الحياة في الجلسة من جديد، بل تدعو من بَعد إلى عَميق التأمل والتفكُّر فيها.

بينما كنتُ ممثلا للنيابة العامة بإحدي هذه الجلسات بمحكمة جزئية من محاكم ريف مصر، كانت الجلسة تسير على مثل هذه الوتيرة من الملل والرتابة، وقفَ المتهم أمام المنصة فسأله القاضي:

ـ هل سرَقت بطة فلان ؟

وقبل أن يُجيب المتهم عن هذا الاتهام بالاعتراف أو بالإنكار، انبرَى أحد المحامين من بين الجالسين فى الصفوف الأولى فى هِمةٍ ونشاطٍ سبَق بهما المتهم نفسه؛ وتوجَّه بحديثه مباشرة إلى القاضي ليقول :

ـ نعم ، لقد أخذ مُوكِّلي – فعلاً – هذه البطة !

تَعجَّب الناس من قول المحامي، وسَرَت فى القاعة همْهَمة بين المحامين سرعان ما تلاشَت حين دقَّ القاضي بمؤخرة قلمه الرصاص على المنصة.

بدت علامات هذه الدَّهشة على وجوه الحضور؛ فما لهذا المحامي يُقرُّ بارتكاب مُوكِّلهُ جريمة سرقة، هل قبَضَ منه أتعابًا ليزُجَّ به فى غياهِب السجن؟ أم ليدافع عنه ويُبرِّيء ساحته!

وهنا عادت الروح إلى الجلسة من جديد، انتبه كل من كان قد نال منه الكسَل، وأصبح الجميع مثلي فى شوق لسماع هذه المرافعة الفريدة.

انتبهْتُ معهم من شبه غفوةٍ كانت قد أثقلت رأسي وأطاح قول المحامي بسلطان النوم عنِّي بلا رجعة، بيْدَ أنَّ قوله هذا لم يُصبني بمثل هذا الاستغراب الذي شاهدتهُ على الوجوه الحاضرة بالجلسة، فإنَّ استهلال المحامي لمرافعته بهذه العبارة؛ لا يعني أبدا أنه يُقر بارتكاب مُوكله الجريمة المنسوبة

إليه، وإنما هو من غير شك تخريجٌ طريفٌ للواقعة، لابُدَّ أن يكون مقصده منه هو البراءة حتى وإن لم يطلبها صراحة.

وقبل أن يُجهد الحاضرون أنفسهم فى فهْم ما حدث، أو استنباط ما يرمي إليه المحامي فقد أراحهم هو من عناء ذلك إذ استطرد يقول :

- إن موكلي جارٌ للمجني عليه، إذ تجاور هو وآخرون مساكنهم، وقد شاهده الأخير وبعض الجيران ممن تتلاصَق أسطح منازلهم؛ وهو يأخذ البَطة المدَّعَى بسرقتها، ولكني أُوضِّحُ لعدالة المحكمة نقطة غاية فى الأهمية، فإن هذه التي ادَّعَى المجنى عليه أنها بَطة لم تكن كذلك، وإنما هو ذكرٌ من البط، ولم يكن استحصال مُوكِّلي عليه بنية تملُّكه؛ وإنما لأن لديه عددًا من إناث البَط؛ كان فى حاجة لمثل هذا الذَّكر وكان سوف يعيده!

وهنا ضجَّت القاعة عن آخرها بالضَّحك، وضحكنا أنا والقاضي معهم، ولكن سرعان ما عادت إلى طبيعتها عندما دقَّ القاضي مرة أخرى على المنصة بمؤخرة قلمه وقال :

ـ حضورى ستة أشهر !

أعجبتني بحق فراسة هذا المحامي، وأبهرَني الدفاع الذي دافع به، واعتقدتُ في البدء؛ أنه لولا أنَّ المسروق بَطة، وأنَّ العِبارة التي صاغ بها دفاعه حول انتفاء ركن الاختلاس تُعدُّ كوميدية بطبيعتها وتناسب مفردات الدعوى، لكان قد تغيَّر وجه الرأي فيها، فإنَّ السرقة كما عرَّفها القانون؛ هي اختلاس مال منقول مملوك للغير بنية تملُّكه، ومن ثم فإذا انتفى ركن النية وهو التَّملُّك؛ انهارت أركان جريمة السرقة.

حدَّثتني نفسي بأنَّ المحكمة اعتبرَت دفاعه من قبيل خِفَّة ظِلٍّ اقتضتها ظروف الواقعة، وإلا لكانت قد حقَّقت دفاعه، ولكني علمتُ من القاضي بعد انتهاء الجلسة؛ أنَّ المتهم قد اعترف فى تحقيقات النيابة العامة بسرقة البطة وبيعها لمروره بضائقة مالية، وأنه لم يقل بشيء مما قاله محاميه في مرافعته، ومن ثم قُضيَ الأمر؛ وكان هذا الحكم.

حُلمٌ ومِشْنقة

كانت طُموحاتهُ واسعة لا حدود لها، بل كانت تفُوق فى سِعتها خياله اللاَّمُتناهي؛ وحُلمه الكبير فى أن يُصبح واحدًا من كبار الأثرياء، وضاقت رأسه وقريته الصغيرة بهذه الأحلام والتطلعات.

بينما كان الشاب أسير هذه الأحلام الكبيرة؛ تصادَف أن التقى بواحدٍ من أصدقائه الذين نزحوا إلى الساحل الشمالي بحثًا عن الرِّزق، راح الصديق يُعدِّد له ما يدور فى هذا الساحل العجيب من مظاهر التَّرف والبذخ والثراء والإسراف أيضا، وما يُنفق فيه من أموال لا حدود لها في التشييد، والبناء، واللهو، والسَّمَر، والجِدِّ والعبَث.

كان الشاب حتى هذه اللحظة لم يَهده تفكيره بعد إلى نقطة البداية فى مشوار تحقيق أحلامه، وهنا شعَر أن هذا الصديق هو نذير ذلك الهاتف؛ الذي طالما ألحَّ في أعماقه أنَّ شيئًا خطيرًا سوف يحدث في حياته، لَمَعَتْ عيناه من شدة الفرح، وانفرجَتْ أسارير وجهه، وقرَّر على الفور أن ينزحَ إلى هذا الساحل العَجيب.

تراقصَتْ خيالات الحُلم أمام عينيه، وارتسَمتْ صور الثراء الذي يحلم به فى مُخيِّلته، وطلبَ من صديقه أن يطير به فورًا إلى هناك.

وما أن وطِئَتْ قدماه إحدى القرى السياحية الشهيرة حتى كاد أن يُغشَى عليه، إن القرية بما فيها وما حولها تبدو كقطعة من أوروبا، لقد تَلقَّى تعليمه الجامعي بالقاهرة ورأى غرائبها وعجائبها وجمالها، ولكنه لم يتخيل أبدا ما وقعَت عليه عيناه فى هذا المكان الساحر العجيب.

انبهرَ الشاب بما رأى، وشرَد بذهنه شرودًا عميقًا لم يستطع صديقه أن يجد له تفسيرا، ولم يُجب هو عن سبب هذا الشرود؛ حين سأله الصديق عما بدا على ملامحه من انفعالات متناقضة، بل أومأ برأسه أنْ لا شيء ، وظل ساعتها شاردًا مبهورا.

تعرَّف الشاب على سُبل العِمالة في القرية؛ ولكنه لم يرضَخ لأي عمل يُقابله كغيره من الشباب، نَفَرَ من العمل فى المعمار بجميع مجالاته، واستاء من حِرفة عُمَّال الأمن الخصوصيين بمداخل القرى ومخارجها؛ أو على المحلات الكائنة فيها، وأبَى أن يكون بائعًا فى حانوت.

ذات ليلة من ليالي الصيف الناعمة الهامسة النَّسَمات، جلس يحتسي فنجانًا من القهوة في ركن خافِت الأضواء بإحدى المقاهي الفاخرة، ثم أشعل سيجارته وشرد ينظر فى لا شيء بين سحابات الدخان الذي ينفُثهُ فى الهواء، وراحَتْ صور الثراء الذي يحلُم به تتراقص أمام عينيه من جديد.

وبينما كانت تلك الخيالات تدور برأسه وهو على هذه الحالة من الشرود، حتى فوجئ بمن يُحدِّثه، رجلٌ أنيقٌ يرتدي حُلَّة فاخرة وتبدو على ملامحه مظاهر الثراء.

كان هذا الرجل قد جلس منذ قليل إلى جواره، لكنه من فَرْط شُروده لم يشعر به إلا وهو يُحدثه، سأله من أي مكان هو؛ وعن سبب تواجده فى القرية، قال الشاب فى أدب جَم وتواضع ملحوظ؛ إنه يَسعى إلى الرِّزق لأنَّ القُوَى العاملة لن تنظر فى أمر أمثاله من الخريجين قبل أعوام وأعوام، وربما لا تنظر فى أمرهم أبدا، واستمرَّ الحوارُ بينهما بعضًا من الوقت.

توسَّم الرجل فى الشاب وفي ترتيب عباراته، وفي الحدِّ المعقول الذي يحافظ به على مظهره أن يكون من المقبلين على العمل، فعرَضَ عليه أن يعمل معه، وأنه إذا استطاع إثبات

أمانته وإخلاصه والدِّقة في الأداء؛ فسيكون له معه شأن عظيم، إنه مُستثمر كبير جاء إلى هذا المكان ليَستثمر فيه، ويحب التفاني فى العمل والإخلاص فيه إلى أبعد حدود.

استفسر الشاب منه عن ماهيَّة العمل الذي سيقوم به؛ وفرح أيما فرَح؛ عندما أخبره الرجل بحاجته إلى شخص أمين مُتَّقد النشاط، ليَمُرَّ على مواقع العمل، ويُقدم تقريرًا يوميًا صادقًا ودقيقًا عما يتم إنجازه من أعمال؛ وما يراه من ملاحظات، وأنه سوف يخصص له سيارة من أجل هذا الغرض.

شعر الشاب أنَّ ليلة القدر قد فتَحتْ له أبوابها، لا سيما حين أردف الرجل بقوله، أنه سيُسلِّمه مفتاح الشاليه الخاص به ليتخذه مسكنا.

انتظم الشاب فى العمل وأبلى فيه بلاء حسنا؛ على نحو نال إعجاب الرجل فأجزل له العَطاء، حتى بلغ مُجمل دخله رقمًا لم يكن يحلم به على الإطلاق، وتجاوَزَتْ العلاقة بينهما رُويدًا رُويدًا حدود العامل ورب العمل، فكان الرجل يصحبه معه فى كل أسفاره ، وبدأ يُشْركُه في تفكيره بشأن

مشروعاته وأعماله، وكان مُعْجبًا بآرائه، وسرعان ما انقلبَتْ العلاقة بينهما شيئا فشيئًا إلى علاقة صديقين حميمين؛ فتعرَّف الشاب على أسرة الرجل، وعرف كل أسراره ومستودع هذه الأسرار بل والأموال.

لم يقْنَع الشاب بالخير الوفير الذي راح يجنيه فى كل يوم حلالاً طيبًا، حدَّثهُ شيطانه بأن الطريق إلى بلوغ غايته بهذا الشكل سيظل بعيدًا بعيدًا، دارت برأسه الوساوس، لماذا يكون تابعًا لهذا الرجل؟ لماذا لا يكون متبوعًا مثله؟ ويكون فى خدمته عشرات من أمثاله من الشباب، ووقر في ذهنه أمرٌ كان مفعولا.

لقد شاهد الخزينة الخاصة بالرجل؛ والتي يحتفظ بها في مسكن آخر مستقل، فكم من مرة ذهَبَ معه لنقل مبالغ مالية كبيرة منها وإليها بمناسبة أعماله، وبالتالي فقد عرف حجم ما فيها من مبالغ سائلة.

كان شيطانه لم يزل يوَسْوسَ له، إنها فرصة؛ والفرصة لا تأتي إلا مرَّة واحدة، لا مفرَّ إذن من قتله؛ والأمر لا صعوبة فيه، فمفتاح الخزينة ضمن مفاتيح السيارة، راقت له الفكرة واختمرَتْ فى رأسه وراح يتحيَّن الفرصة.

في الليلة المحتومة كان الرجل فى معيَّته بالشاليه؛ وبعد أن قضيا سهرتهما فى حديث أُخويّ رقيق ، آوى الرجل إلى فراشه فى الحجرة الخاصة به داخل الشاليه؛ وما أن لامَسَتْ رأسه الوسادة؛ حتى راح من شدة الإرهاق فى نوم عميق، بينما ظل الشاب مُستيقظًا يدفعه شيطانه دفعًا إلى تنفيذ جُرمه.

ثم كانت الجريمة، قام الشاب إلى حجرة الرجل وقد حمل حَجرًا كبيرًا كان قد أعدَّهُ لهذا الغرض، هوَى بالحَجر فوق رأسه فجأة، انفجَر الدَّمُ من الرأس المغدور به، ثم عاد وضربه بذات الحجر ضربة أخرى قوية قاصدًا إزهاق روحه، خارت قُواه رويدًا رويدًا؛ بَيْد أنَّ أنفاسه كانت لم تزل تتردَّد بين جوانحه، أسرَع إلى المطبخ، استلَّ سكينًا كبيرًا وراح يطعنه به بلا شفقة ولا رحمة، طعنات متواليات قاسيات؛ في بطنه وصدره، ورقبته، لم يكتف بكل هذه الخسَّة وكل هذا الغدر، جاء بسلك كهربائي ربَطهُ فى قدميه وأوصله بالتيار ففاضَتْ الرُّوح إلى بارئها.

كان الليل لم يزل يُرخي سُدولهُ على الكوْن، ربَط الشاب حبلاً غليظًا فى الجثة وجرَّها دون رحمة؛ وألقى بها فى بالوعة

للصرف الصحي تحت الإنشاء، ثم تخلَّص من آثار جريمته فى الشاليه، أزال آثار الدماء، وفى الصباح توجَّه مسرعًا إلى تلك المدينة الكائن بها الخزينة ونهَب ما فيها من أموال.

كانت عدالة السماء له بالمرصاد؛ انكشَف أمرُ الواقعة، لم يجد الشاب مناصًا من الاعتراف بجُرمه اعترافًا تفصيليًا لم تشُبْهُ ثمة شائبة، ويُساق إلى محكمة الجنايات فتقضي بمعاقبته بالإعدام.

وهنا جاء دوري، كان متأخرًا فى هذه الواقعة، لم أكن محققًا ولا مترافعًا فيها، وإنما أُنيط بي مُهمَّةٌ أثقل من ذلك بكثير؛ وهي حضور تنفيذ الحكم الصادر بالإعدام، يا لها من مُهمَّة شاقة وقاسية.

فمتى صار الحكم بالإعدام نهائيًا؛ وجَبَ رفْع أوراق الدعوى فورًا إلى رئيس الجمهورية بواسطة وزير العدل، ويُنفَّذ الحكم إذا لم يصدر الأمر بالعفو أو بإبدال العقوبة في ظرف أربعة عشر يوما.

ولأقارب المحكوم عليه بالإعدام أن يقابلوه فى اليوم الذى يُعيَّن لتنفيذ الحكم ، على أن يكون بعيدًا عن محل التنفيذ.

وإذا كانت ديانة المحكوم عليه تفرض عليه الاعتراف أو غيره من الفروض الدينية قبل الموت؛ وجَبَ إجراء التسهيلات اللازمة لتمكين أحد رجال الدين من مقابلته.

وأوجب القانون أن يكون تنفيذ عقوبة الإعدام بحضور أحد وكلاء النائب العام، ومأمور السجن، وطبيب السجن أو طبيب آخر تندبه النيابة العامة، وغالبًا تندب أحد الأطباء الشرعيين، ولا يجوز لغير هؤلاء أن يحضروا التنفيذ إلا بإذن خاص من النيابة العامة، ويجب أن يُؤذَن للمدافع عن المحكوم عليه بالحضور.

قمتُ بمطالعة التحقيقات، عِشتُ أحداثها بقلبي وعقلي ووجداني، أحسَسْتُ أنَّ الشَّنقَ وحدهُ لا يكفي جزاءًا لهذا الغادر الحاقد مُتحَجِّر القلب، بل إننا لنظلم الحجارة إنْ شبهناها به، فقد قال فيها ربُّ العباد سبحانه وتعالى: { وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهَّ وَمَا اللهُّ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } صدق الله العظيم.

إنكَّ إنْ تمثَّلتَ جُرمه وخِسَّته ونذالته؛ لتمنَّيتَ مثلي أن يحيا بعد الشَّنق مائة مرَّة ليُشنَق من جديد.

فى تمام الساعة السابعة صباحًا كنتُ في ديوان سجن الاستئناف، إن تنفيذ الحكم قد تحدَّد له الساعة الثامنة، جلستُ ومن فى معيَّتي ننتظر مرور الوقت، كانت الدقائق تمرُّ ثقيلة، ودار أمامي شريط الأحداث؛ تذكَّرْتُ قول المتهم وهو يُحدِّث نفسه حين راح يصف لصاحبه طموحه "بأنَّ هاتفًا كان يلحُّ عليه فى أعماقه؛ أن شيئًا خطيرًا سوف يحدث في حياته".

نعَم؛ إنَّ شيئًا خطيرًا سيحدثُ اليوم – حقًا – في حياته، لقد صدَق حدْسُه.

ثم كان المشهد الختامي من سيناريو قصة هذا الحلم، ففي الثامنة إلا خمس دقائق خرجنا من مكتب المأمور إلى فناء السجن، اتخذنا من أمام غرفة الإعدام موقعًا، أحضرَ "عشماوى" ومساعدوه والحرَّاس الشابَّ من محبسه، كان قد أسْلَم لهم القِياد فسار فى معيَّتهم مُستسلمًا صاغرًا يرفُل فى حُلته الحمراء؛ المقرر ارتداؤها لأمثاله ليتذكروا دائما لون الدم

الذي سفكوه، كان رابط الجَأش مُتماسكًا، لا أدري هل فقَد من هول هذه اللحظات العصيبة إحساسه بالمكان والزمان؟ أم أنه امتثَل لقضاء الله راضيًا تائبًا كي يتطهَّر بهذا القصاص.

أوقفوه فى ذات المكان، أمسكوا بذراعيه فى رفقٍ وغلُّوهما خلف ظهره وأوثقوهما برباط، ووقف أحدهم خلفه واثنان عن اليمين وعن الشمال، ثم تلا مأمور السجن من الحكم الصادر بالإعدام منطوقه؛ والتُّهمة المحكوم من أجلها على مسمَعٍ من الحُضور، ثم لقَّنهُ واعِظ السجن الشهادتين وجعله يُردِّد من خلفه دعاء الاستتابة.

فقد أوجب القانون أن يُتلى من الحكم الصادر بالإعدام منطوقه والتهمة المحكوم من أجلها على المحكوم عليه، وذلك فى مكان التنفيذ بمسمع من الحاضرين، وإذا رغب المحكوم عليه فى إبداء أقوال حرَّر وكيل النيابة مَحضرًا بها وعند تمام التنفيذ يُحرِّر وكيل النيابة محضرًا بجميع الإجراءات ويُثبت فيه شهادة الطبيب بالوفاة وساعة حصولها.

وقد حظر القانون تنفيذ عقوبة الإعدام فى أيام الأعياد الرسمية أو الأعياد الخاصة بديانة المحكوم عليه؛ وأوجب

وقف تنفيذ هذه العقوبة على الحُبلَى إلى ما بعد شهرين من وضعها.

و"عشماوي" - هذا - ليس اسمًا لوظيفة من يقوم بتنفيذ حكم الإعدام، ولكنه ارتبط فى مصر بلقب ذلك الشخص الذى كان منوطًا به هذا العمل منذ زمن بعيد؛ فأصبح اسم عَلَم يُطلق على كل من يقوم بمُهمة الإعدام شَنقًا فى مصر.

أما غرفة الإعدام، فهي غرفة صغيرة توجد فى كل سجن استئناف، ولا تحتوى إلا على المشنقة، ونَقَّالة كائنة فى أحد جوانبها، وأرضية هذه الحجرة التى يقف عليها المحكوم عليه عبارة عن طبلية من الخشب؛ مكونة من ضلفتين تفتح من المنتصف إلى أسفل عن طريق فرملة؛ عندما يجذب عشماوي يد المقصلة، ومن أسفل هذه الطبلية بئر عمقها أربعة أمتار.

وفى يوم الإعدام يتولى عشماوي معاينة الغرفة ليتأكد من صلاحيتها لتنفيذ الحكم، وعندما يدخل المحكوم عليه رفقة القائمين على التنفيذ، يبدأ فى ضبط حبل المشنقة الذى يتحدَّد طوله وصلابته حسب طول المحكوم عليه ووزنه، بحيث لا تُلامِس قدماه أرض البئر عندما يهوي إليها.

وعندما تحين لحظة القصاص؛ يسحب عشماوي يد المقصلة، فتنفتح ضَلفتا الطبلية التى يقف عليها المحكوم عليه فى سرعة فائقة، فيهوي الجسد فى لمح البصر إلى البئر، وهنا يحدث كسر فى فقرات الرقبة، وتهتكًا فى النُّخاع الشوكى، فيموت على إثرها فى خلال فترة زمنية لا تجاوز دقائق معدودة تتفاوت من شخص إلى آخر، ثم ينزل الطبيب الشرعى المرافق إلى البئر ليجس النبض؛ ويحدد الساعة واللحظة التى خرجَت فيها الروح إلى بارئها، ويُثبت وكيل النيابة هذه اللحظة فى محضر إجراءات تنفيذ الحكم.

فى تمام الثامنة صباحًا؛ ولما صِرنا فى قلب هذه الغرفة المفزعة، تولَّى عشماوي ومساعدوه أعمالهم؛ سحبوا الشاب برفقٍ وأوقفوه فى منتصف الحجرة فوق هذه الطبلية؛ أسفل الحبل المُتدلِّي من المقصلة، ألبسوه طاقية حمراء أسدلوها على عينيه، أوثقوا رجليه برباط من فوق القدمين، طوَّقهُ عشماوي بالحبل؛ وضبَط اتساعه حول رقبته، ثم أخذ موقعه هناك إلى جوار الحائط حيث يد المقصلة.

جذَبَ عشماوي اليد، أحدثت دويًّا رهيبًا مُرعبًا؛ هو صوت انهيار الطبلية من تحت قدميه، هوَى الشاب إلى البئر في أسرع من لمح البصر.

وهنا؛ أُسْدِل السِّتار على قصة هذا الحلم، ذهبَ هذا الجاني للقاء ربِّه، ولكن بقيَ التساؤل الأبديّ، ما الذي يريده الإنسان؟ مأكلٌ طيِّب، وملبسٌ طيِّب، وبدنٌ مُعافى، ثم ينعدم الرضا وتُسفك الدماء، لماذا؟ وما هو المطلوب؟ رُحماكَ يا ربي.

.. والشُّرطة مُتَّهمة

تتوصَّل تحرِّياته إلى أنَّ شخصًا يحوز أو يحرز مواد مخدرة في غير الأحوال المُصرَّح بها قانونا .. أو أسلحة نارية وذخائر بدون ترخيص .. يَطرُق الضابط باب المسكن .. يُحيط سُكَّانه أو المتهم بالمأمورية القادم من أجلها .. يَدخل لتنفيذ الإذن .. يَضبط ما يجده من ممنوعات .. يبدأ في الانصراف هو وقُوَّاته المرافقة له بالمتهم والمضبوطات .. يَصيح أهل المتهم أو ربما المتطوِّعين من الجيران .. يَتجمَّع ذويه وربما من ليسوا من أقاربه .. يَستميتون لتهريبه .. يَعتدون بالسَّب والضرب وأحيانا باستخدام أسلحة نارية أو بيضاء على الضابط وقُواته، يستخدم الضابط ومن معه القوة اللازمة لدرء الاعتداء .. وإذا ما أصيب واحد أو أكثر من المعتدين تقوم القيامة لَدَى الجمهور ولَدَى الدفاع حين يترافع .. وتُتَّهم الشرطة بالإجرام!.

يَصدُر قرار المحافظ بإزالة مَبنى مُخالف لم يَزل تحت الإنشاء .. تُتَّخذ الإجراءات اللازمة قانونا لتنفيذ القرار، تقوم حملة التنفيذ .. تبلغ المكان .. تُحيط الصادر ضده القرار

بمضمونه .. يَشْرعون في التنفيذ .. يَصيح المُخالف أو ربما واحد من الجيران؛ وربما عابر سبيل .. تصرخ النساء .. يَقفْنَ أمام البلدوزر؛ يَضَعْنَ في طريقه الأطفال .. يقذفون قائده بالحجارة .. يتطوَّع الناس بالحضور وبالصياح .. يقاومون الحَملة لمنعم من أداء عملهم .. يُصاب أحدهم .. وتُتَّهم الشرطة بالإجرام!.

يَقبض الضابط على المتهم في مَسكنه بطابق عُلوي تنفيذًا لإذن النيابة العامة بالقبض والتفتيش؛ أو بالضبط والإحضار، يَفلت من الضابط .. يقفز من الشُّرفة أو من فوق السَّطح .. يُصاب بإصابات بالغة أو ربما طفيفة.. يَتطوَّع ذويه والجيران ومَن لم يُشاهد ما حدث؛ بالشهادة ضد الشرطة، وتُتَّهم الشرطة بالإجرام!.

يَمُرُّ الضابط ليتفقَّد حالة الأمن العام وضبط الخارجين على القانون أو لتنفيذ الأحكام .. يُبْصِرُ شبَابًا يبيعون المخدرات؛ وبعض أفراد يناولونهم النقود فيُعطونهم الترامادول، أو البانجو، أو الحشيش، أو لفافات الهيروين، يَقبض عليهم .. يُفتِّش التُّوك تُوكْ وسيلة التَّنقُّل لممارسة البيع،

يَضبط فيه كميات أخرى من المخدرات وأسلحة نارية أو بيضاء كالسَّكاكين أو السِّنَجْ أو ما شَابَه، يتجمَّع الجمهور، يُقاومون الضَّابط لتمكين المجرم من الهروب .. وتُتَّهم الشرطة بالإجرام!.

وغيره وغيره كثير .. ويثور التساؤل المُحَيِّر: ما الذي دَها الناس من أهل وطني؟ من أيِّ ثقافةٍ استقوا ما يَفعلون؟ لمَ يَرَوْن مَن يُنفذِّون القانون أعداء لهم؟ مِن أين اسْتمدُّوا قناعَتهم بوجوب ألا يُطبَّق عليهم القانون؟ وأنه ليس من حق الدولة ضبط جرائمهم؟ لمَ لا يَمْتثلون لإجراءاتٍ تجري على نحو قانوني سليم؛ ولهم من بعد أن يُدافعوا عن أنفسهم ويُبرِّئوا ساحاتهم؟ إنَّ الأمر جَدّ لَحزن وخطير .. حين تراها عدوى قد انتشرَتْ وشاعَت؛ وتتكرَّر في كل يوم؛ ومع كل واقعة ضبْط لمن يخالفون القانون .. ولم تقتصر على ثقافة دون أخرى .. ولا من قرية أو مدينة إلى أخرى .. مَن يُعيد هؤلاء إلى رُشدهم .. من يُرسِّخ في عقولهم ثقافة احترام القانون؟ إنه لَأمرٌ عجَبْ!.

المؤلِّف في سُطور

- عُضو اتحاد كُتَّاب مصر.
- عمِلَ وكيلاً للنائب العام في أريافِ مصر في منتصف الثمانينيات
- ثم قاضيًا بمحكمة الإسكندرية الإبتدائية.
- ثم رئيسًا لنيابة كفر الشيخ الكلية.
- ثم مستشارًا .. فرئيسًا في محاكم جنايات بني سويف .. طنطا العريش .. الإسكندرية .. الإسكندرية الإقتصادية .. وكفر الشيخ.
- مُحاضِر بكلية الحقوق جامعة الإسكندرية.
- صدَر له مجموعات قصصية / "يوميات وكيل نيابة" "يوميات قاضٍ" .. "برجولا" .. حكايات قضائية .. ولحظة انهيار.
- وسَرْد شاعري : "الحب بعد المداولة" و "من فيض الخاطر" نشر وتوزيع منشأة المعارف ومركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر بالإسكندرية.

الفهرس

- هذه الحكايات ٧
- وما زال الجرجاوي حيًّا ١١
- ضحكة مدمرة ١٥
- مَلِكٌ أكثر من الملك ٢٥
- فلاحٌ نابِه ٣١
- جُثة لإثبات مِلكية ٣٥
- الدفاع للدفاع ٣٧
- مُخدِّر شيخ البلد ٤٧
- حكاية التلهي ٥١
- عِطيفي وضِيفي ٥٣
- اعطني عَقلَك ٥٥
- المخدرات ٦٥

- الدَّمع الحزين ٦٩
- رَخامة ٧٣
- البطلة والمحامي ٨٣
- حُلم ومشنقة ٨٩
- .. والشُّرطة متهمة ١٠٣
- المؤلف في سطور ١٠٧
- الفهرس ١٠٩

تمَّ بحمد الله وفضله